سُبُلُ الهُدَىٰ وَالرَّشَادِ

فِي سِيرَةِ خَيرِ العِبَادِ ﷺ

تأليف

الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي

المتوفى ٩٤٢ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

الشيخ علي محمد معوض

المجلد الأول

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

سُبُلُ الهُدَى وَالرَّشَادِ
فِي سِيرَةِ خَيْرِ العِبَادِ

للإمام محمّد بن يوسف الصالحي الشّامي
المتوفى سنة ٩٤٢ هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمّد معوض

الجزء الأوّل

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٣ ٢١ ٦٠ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٣٣ ٢١ ٦٠/٩٦١١/٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

اللهم إنا نحمدك حمداً يوافي جليل نعمك، ويكافئ مزيد آلائك ونسألك توبة ممّاحة وستراً لا ينكشف، ونبرأ إليك من الحول والقوة، ونرغب إليك في أن تجعل كل ما نتصرف فيه منصرفاً إلى ما يتصل برضاك، ومصروفاً عما يؤدي إلى سخطك. ونصلي ونسلم على النبي الأمي وعلى أبويه الكريمين إبراهيم وإسماعيل أما بعد.

فأمر لا ريب فيه أننا مأمورون باتباع النبي ﷺ فعلاً وقولاً وتقريراً كما أشار إلى ذلك الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾ وذلك أيضاً أمر الله الواجب في قوله: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب**﴾. ولما كان الرسول ﷺ مناط الاتباع، كما أمر بذلك الشارع الحكيم، وجب على فريق من الأمة أن تنفر لجمع وتصنيف وتوصيف حياة الرسول ﷺ وإلا فقد ضيعت الأمة بيان الكتاب وأسوتها في تنفيذه، وذلك مما تعوَّذ أئمة الأمة بالله من التقصير فيه فضلاً عن تركه فقد كانوا ـ رحمهم الله ـ أبصر الناس بفقه أوامر الكتاب، وبالتقرب إلى الله بخدمته. لذلك فقد عكفوا على تدوين سيرة النبي ﷺ رواية ودراية ونقداً وتمحيصاً. ولا في تراث هذه الأمة ـ الذي يعد ذخيرتها، وسبب حياتها ـ أجمَع ولا أوعى من هذا الكتاب في سيرة النبي ﷺ وذلك العمل الجليل باد بالرجوع إلى كتب السنة على اتساعها واكتنازها بالذخائر النبوية والجواهر المحمدية، فحقت بذلك كلمة مصنفه ـ رحمه الله ـ وناظم درره وسالك جواهره، ومعطف أفنانه ومشبك أغصانه، فخرج الكتاب شجرة يانعة، جمعت أطايب الثمار ويانع الأزهار وكان الكتاب كما قال رحمه الله تعالى وأثابه في خطبة الكتاب «فهذا كتاب اقتضبته من أكثر من ثلاثمائة كتاب، وتحريت فيه الصواب، ذكرت فيه قطرات من بحار فضائل سيدنا رسول الله ﷺ من مبدأ خلقه قبل خلق سيدنا آدم ﷺ وأعلام نبوته وشمائله وسيرته وأفعاله وأحواله وتقلباته، إلى أن نقله الله ـ تعالى ـ إلى أعلى جناته، وما أعده له فيها من الإنعام والتعظيم، عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم».

ولم أذكر فيه شيئاً من الأحاديث موضوعاً، وختمتُ كل باب بإيضاح ما أشكل فيه، وبعض ما اشتمل عليه من النفائس المستجادات، مع بيان غريب الألفاظ وضبط المشكلات، والجمع بين الأحاديث التي يظن بها أنها من المتناقضات، وإذا ذكرت حديثاً من عند الأئمة

فإني أجمع بين ألفاظ رواته إذا اتفقوا... إلى آخر ما أبان به عن منهجه - رحمه الله - ودراسة سيرة الرسول ﷺ ضرورة حضارية وإيمانية.

فالناس من لدن خلقهم الله - تبارك وتعالى - فريقان فريق يتعشق الحق ويموت دونه وينافح عنه، وفريق يلج في الباطل، ويتأكل به ويعيش له، ذلك ما قررته قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) ورفض قول الحق على وضوحه وجلاله وارتضائه أن يبوء باثمه وإثم أخيه وذلك يقتضينا كمسلمين دراسة السيرة لفقه حق الله وبيان حال من اتبعه من الدنيا واستمسك به وديدنه تجاه الباطل في سيرة النبيين والمرسلين ذلك الوجه الحق في التاريخ والسير، لذلك أُمر النبي ﷺ بأن يقص لأمته سيرة النبيين فقال تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ نوح**﴾ (يونس ٧١) وقال: ﴿**واتل عليهم نبأ إبراهيم**﴾ (الشعراء ٦٦) وقوله: ﴿**واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب**﴾ (ص ١٧) وقوله: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار**﴾ (ص ٤٥).

وبين الذكر الحكيم هدف القصص فقال ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ (يوسف ١١١) فقد أشار القرآن الكريم إلى أن قصص النبيين هدى ورحمة فاستوجب ذلك تفصيل سير الأنبياء، للاهتداء بها وذلك أمر واضح من توزع قصص النبيين على شتى سور الذكر الحكيم، في كل سورة جزء من قصة نبي من المرسلين، حسبما تقتضيه طبيعتها، وحسبما تتوفر عليه من معالجة قضايا تختص به دون غيرها. حتى أوشك القرآن الكريم أن يكون كله قصصاً. تلك هي ضرورة دراسته الدراسة التي ينبه إليها الذكر الحكيم.

أما ترى ما صنع الله بفرعون، وما علل به سبحانه لصنيعه ﴿**فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾ (يونس ٩٢).

ولا أدل من كون دراسة السير ضرورة حضارية من توفر الغرب على درس تاريخ الأمم لبيان المزايا والمساوئ.

وتمتاز السيرة النبوية على غيرها من السير بأنها حظيت بالنقد الممحص لكل ما أضيف إلى الرسول ﷺ وأنه لم يكتب عن هوى، ولا عن حقد وسوء قصد إلا ما ندر من كتابات المستشرقين وأعقابهم، وقد نبه ﷺ لذلك فقال «**لا تطروني** كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله» فكان في ذلك كما وصفه ربه سبحانه ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾.

والسيرة إذ تتصل بالنبي ﷺ ويقوم درسها على صحيح الثقة تباين منهج التاريخ ولما يتوافر لها من أسباب الحيطة والتوثيق لما تهيأ لمصادرهما من النقل الصحيح.

ولا شك أن للصحابة دوراً رائداً في حقل سيرة الرسول ﷺ وهم على بصيرة بما ينقلون كما شهد لهم القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ (الفتح ٢٩).

وما نبه إليه من احترامهم وتوقيرهم وتجنب سبهم في قوله «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» وذلك مما يوقع مفارقة هائلة بين السيرة والتاريخ لاختلاف النزعات في تناول أحداث التاريخ وتغير ظواهره ومن بين تلك النزعات نزعة التفسير المادي للتاريخ تلك التي سيطرت على أفكار دعاة الشيوعية..

من أصلِ كل ذلك كانت دراسة السيرة على هذا الوجه الجامع من خيرة أعمال الأئمة. وهذا الكتاب الجامع لسيرة النبي ﷺ يبين للقارئ جوانب عدة من حياة الرسول ﷺ يحسن عدها:

ما يتصل بنسبه الشريف ﷺ.

وقد اقتضاه ذلك الجانب الرجوع بنسبه لبيان صفاء معدنه وكرم أصله، فهو الحسيب النسيب الشريف المنزه فالعرب مقسمون عند المؤرخين إلى سلالات ينحدرون منها.

العرب البائدة: وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها.

ثم العرب العاربة: هم أولئك الذين يضربون بنسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، وهم يسمون بين أهل العلم بالعرب القحطانية.

ثم العرب المستعربة: وهم أولئك الذين ينحدرون من صلب سيدنا إسماعيل - عليه السلام - ويطلق عليهم أيضاً «العرب العدنانية» وإنما أطلق عليهم هذا الاسم، لأن إسماعيل أباهم لم يكن عربي العصب والصلب، وإنما صاهر العرب وعايشهم وآكلهم وشاربهم، وتشارب اللغة من أفواههم، ومع أنهم عرب مستعربة إلا أنهم غدوا أفضل العرب برسول الله ﷺ كما قيل.

وكم أب قد علا بابن له شرف كما علا برسول الله عدنان فعلى ما بين النبي ﷺ وبين عدنان من عدد اختلف فيه ما بين مقل ومكثر، وعلم الحق في ذلك عند الله سبحانه، فقد روي أنه ﷺ كان إذا انتهى في النسب إلى معد بن عدنان أمسك، وقال كذب النسابون واستدل لذلك بقول سبحانه: ﴿**وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً**﴾.

فهو ﷺ خيار من خيار كما قال: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» ودونك عمه أبا طالب يفاخر بنسبه فيقول:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرَت يوماً فإن محمداً هو المصطفى من سرها وكريمها

ومؤلف هذا الكتاب يجمع ما تناثر في كتب السيرة والسنة من حيث نسبه الشريف، وينظم هذه اللآلئ بيد صناع. يخرج أسانيدها، ويفصل ويشرح غريبها، ويتعقب ضعيفها، ويقدح من منكسرها وموضوعها، فيريكَ بدائع من الزهر ويجنيك الحلو اليانع من الثمر.

فيما يتصل بمولده الشريف

وقد قدمت إرهاصات لمولده الشريف، أفزعت كسرى وقيصر واهتز لمقدمه الوجود. فقد رووا ـ رحمهم الله ـ أنه «لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم. فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبر عليه تشجعاً، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته، فجمعهم، ولبس تاجه وجلس على سريره ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده، قال: أتدرون فيما بعثت إليكم؟ قالوا: لا، إلا أن يخبرنا الملك، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران فازداد غماً إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله فقال الموبذان: وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت في هذه الليلة رؤيا، ثم قص عليه رؤياه في الإبل، فقال: أي شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون في ناحية العرب ـ وكان أعلمهم من أنفسهم ـ فكتب عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، أما بعد فوجه إلي برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني، فلما ورد عليه، قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ فقال: لتخبرني، أو ليسألني الملك عما أحب، فإن كان عندي منه علم، وإلا أخبرته بمن يعلم. فأخبره بالذي وجه به إليه فيه، قال:

علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام، يقال له: سطيح، قال: فأْته فاسأله عما سألتك عنه، ثم ائتني بتفسيره، فخرج عبد المسيح، حتى انتهى إلى سطيح، وقد أشفى على الضريح. فسلم عليه، وكلمه فلم يرد إليه سطيح جواباً فأنشأ يقول:

أصمٌّ أم يسمعُ غطريفُ اليَمَن ... أم فادَ فاز لم بهِ شأوَ العنن
يا فاصلَ الخطة أعيت مَنْ ومن ... أتاك شيخُ الحي من آلِ سنن
وأمّهُ من آل ذئب بن حجن ... أزرقُ نهمُ النيابِ صرّار الأَذَن
أبيض فضفاضُ الرداءِ والبدن ... رسولُ قيل العجم يسري للوسن
يجوب بي الأرضَ علنداةُ شزِن ... لا يرهب الرعدَ ولا ريبَ الزمن
ترفعُني وجناً وتهوي بي وَجَنْ ... حتى أتى عاري الجآجي والقَطَن
تلفُّه في الريح بوغاءُ الدِّمن ... كأنما حُثْحِثَ من حِضني ثكن

قال: فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول: عبد المسيح على جمل مشيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها، يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول:

شمّر فإنك ماضي العَزْم شِمِّيرُ ... لا يفزعنَّك تفريقٌ وتغييرُ
إنْ يُمسي ملكُ بني ساسان أفرطهم ... فإنَّ ذا الدهر أطوارٌ دهاريرُ
فربَّما ربما أضحوا بمنزلة ... يخاف صَوْلَهمُ الأُسْدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصَّرح بهرامٌ وإخوَتهُ ... والهرمزان وشابور وسابور
والناس أولاد علاَّت فمن علموا ... أن قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورٌ
ورب قَومٍ لهم صحبان ذى أُذن ... بدت تلهّيهمْ فيه المزاميرُ
وهم بنو الأم إما إن رأوا نشباً ... فذاك بالغيب محفوظ ومنصورُ
والخير والشر مقرونان في قَرَنٍ ... فالخير متبع والشر محذورُ

قال: فلما قدم عبد المسيح على كسرى أضجره بما قال له سطيح، فقال كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

ومشتهرة حادثة الفيل تلك التي واكبت مولد النبي ﷺ وغير ذلك، ذلك المولد الذي كان ثمرة الالتقاء القصير بين عبد الله بن عبد المطلب، وآمنة بنت وهب ومما يمتاز به هذا الكتاب، جمع آراء الأئمة في مصير أبوي النبي ﷺ وتفصيل أدلة كل فريق بما يربو على أربعين صحيفة.

وكان مولده ﷺ في التاسع أو الثاني عشر شهر ربيع الأول (٢٠ إبريل ٥٧١م)، وقد أقيمت مكتبة في المكان الذي ولد فيه ـ عليه السلام ـ ويؤمها كثير من الحجاج لعيشوا في رياض المكان الذي شهد مولد المصطفى ﷺ ذلك الصفي يتيم الأبوين الذي مات أبواه فكفله جده، ومن بعد جده عمه.

فيما يتصل برضاعه

وقد ذكروا أن أول من أرضعته من المراضع ـ بعد أمه ﷺ ـ ثويبة مولاة أبي لهب، وكان ذلك بلبن ابن لها يقال له: مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وكانت السيدة حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية ـ أم رسول الله من الرضاعة ـ تذكر أنها خرجت في طلب مرضع مع زوج، وابن لها صغير ترضعه، مع جملة من نساء ينتسبن لبني سعد بن بكر، لطلب الرضعاء في سنة تذكر أنها كانت سنة جدب وقحط، على أتان لها ومعها ناقة كبيرة السن قد جف ضرعها من شدة القحط وقحط السنة، وكان صوت صبيها يتعالى من بكائه من شدة الجوع وخواء ثديها مما يرويه، وجفاف ضرع ناقتها، وذلك المركب الذي امتطوه يتباطأ بهم عن السير، لما يجده من الجوع. ذلك حال أم النبي ﷺ من الرضاعة، تصفه بنفسها عندما جاءت لتطلب الرضعاء، وتذكر هذه السيدة أنه ما منهن امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، نظراً لما كنّ يؤمّلنه من نوال والد الصبي، فذلك عَائِدَ المطلوب لهن، فكن يقلن: يتيم، وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكرهن الرضى به لذلك، وحظيت نسوة بني سعد برضعاء، خلا السيدة حليمة، فكرهت السيدة حليمة الرجوع من بين صواحبها، فعادت إلى ذلك الصبي اليتيم، بعدما كانت قد أجمعَت على الانطلاق، فقال لها زوجها: لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة! فذهبت إليه فأخذته، وما حملها على أخذه سوى عدم وجود غيره، فأخذته ورجعت به إلى رحلها، ووضعته في حجرها، فأقبل على ثديها، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، ولعلك تذكر أن صوت أخيه كان يتعالى بالبكاء، فيطرد من أجفان والديه النوم. وأعجب من ذلك أنها نهضت لناقتها تلك التي كان ضرعها جافاً في مقدمها لطلب الرضعاء، فإذا بهذا الضرع يدر اللبن، فشربت وزوجها حتى انتهيا وقد صدرا عن الضرع رياً وشبعاً وباتا بخير ليلة.

فأخبرها زوجها بأنها حظيت بنسمة مباركة، إذ لم تكن السيدة حليمة يوماً تطمع في أن تذكر هذا الذكر بين الناس، وأن تحظى بذلك التشريف، فحسبها من شرف أنها أمه، وشيء آخر هو أن أرض بني سعد ما كان أجدب منها أرض في ذلك العام، فكانت أغنام بني سعد تروح جياعاً، وأغنام هذه السيدة تروح شباعاً.

وانتشر ذكر بني سعد بين الناس إلى اليوم، لتشرُّفهم بإرضاع النبي ﷺ وحسبهم من شرف ما كان يقوله محمد ﷺ لأصحابه:

«أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت من بني سعد بن بكر».

وإخوته ﷺ من الرضاعة من بني سعد (عبد اللّه بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث، الملقبة بالشيماء، تلك التي كانت تحضن رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ).

وحمزة بن عبد المطلب عمه ﷺ أخو النبي من الرضاعة من وجهين، من جهة ثوية، ومن جهة السعدية. وقد بقي الرسول ﷺ مع بني سعد حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة من مولده، وقع حادث شق صدره، ففي مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتَاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظّ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه، فكان عند أمه.

كفالته صلى الله عليه وسلم

كان لعبد الله بن عبد المطلب مكانة خاصة في فؤاد عبد المطلب ظهر ذلك في معاملة عبد المطلب حفيده محمداً ﷺ فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يفضله على أولاده.

قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.

وقد مات جده عبد المطلب وعمره حينئذ ثماني سنوات وشهران وعشرة أيام، وقبل أن يموت عهد بكفالته إلى عمه أبي طالب وقد استسقى أبو طالب بوجه النبي ﷺ فقد أخرج ابن عساكر قال: «قدمت مكة، وهم في قحط، فقال قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستعد! فخرج أبو طالب، ومعه غلام، كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابَة قتماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثُمال اليَتَامى عصمةٌ للأرامِلِ

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم، وظل فوقه أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته، ويناضل الخصوم من أجله.

وقد تبدى ذلك جلياً عندما بلغ الرسول ﷺ اثنتي عشرة سنة، وارتحل به عمه أبو طالب تاجراً إلى الشام، فإذا ما وصل به إلى بصرى، وبها راهب يقال له: بحيرى في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، إليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ـ وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته. يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حتى أقبل وغمامة تظلله من بين القوم. ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها. فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فَصُنِع. ثم أرسل إليهم. فقال إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم، كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحركم. فقال له رجل منهم والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم. ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرى صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم طعاماً فتأكلون منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنة في رحال القوم تحت الشجرة فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجده عنده فقال يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا يا بحيري ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدثنا سناً، فتخلف في رحالنا. قال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال فقال رجل من قريش مع القوم، واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا

فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى وقال له يا: غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه. وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزى شيئاً. فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما. فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؟ فقال له سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله ﷺ يخبره فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال ما هذا الغلام منك؟ قال ابني قال بحيري ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال فإنه ابن أخي. قال فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به قال صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

في هذا الوقت اشتد حرص أبي طالب على محمد ﷺ.

زواجه من خديجة

كان عند زواجه منها في الخامسة وعشرين من عمره، لما اشتهر عندها من أمره وصدقه وأمانته، حيث كانت تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبل رسول الله وخرج في مالها، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام، ثم باع سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلاً إلى مكة، ومعه ميسرة، فلما قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به، فأضعف، وبلغها من ميسرة من سيرة محمد ﷺ بما ترتب عليه أن بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا ابن عمي إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك في قومك وأمانتك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه الزواج منها، وكانت حينئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على الزواج منها لو يقدر عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكره لأعمامه وخطبها وتزوجها وكان صداقها عشرين بكرة، وكانت أول امرأَة تزوجها ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها.

وقد ولدت لرسول الله أولاده كلهم ـ إلا إبراهيم والقاسم ـ وبه كان يكنى ﷺ والطاهر والطيب ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة، أما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية،

وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، وأما إبراهيم فأمه مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس عظيم قبط مصر.

وقد توفي أبناؤه جميعاً ﷺ في حياته سوى فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فقد تأخرت بعده بستة أشهر ثم لحقت به.

في كسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لم يكن للنبي ﷺ عمل معين في أول شبابه، إلا أن المشتهر عنه أنه كان يرعى الغنم وكان قد رعاها في بني سعد فيما يروى، وكان يرعاها في مكة على قراريط، وقد عمل بالتجارة في مال خديجة رضي الله عنها، وذلك ما ينبئ به الرسول عن نفسه.

في ما كان يشتغل به رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج خديجة

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم» فقال له أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط» رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي عن عمرة بن يحيى به. ثم روى البيهقي من طريق الربيع بن بدر ـ وهو ضعيف ـ عن أبي الزبير عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص» وروى البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس أن أبا خديجة زوج رسول الله ﷺ وهو ـ أظنه ـ قال سكران ثم قال البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أنا عبد اللّه بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان قال حدثني إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي حدثني عبد اللّه بن أبي عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبي القاسم مولى عبد اللّه بن الحارث بن نوفل أن عبد اللّه بن الحارث حدثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له تِرباً وكنت له إلفاً وخدناً. وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني فانصرفت إليها ووقف لي رسول الله ﷺ فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار فرجعت إليه فأخبرته فقال «بلى لعمري» فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت اغدوا علينا إذا أصبحنا، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقي خمراً فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً. فقال: ما هذه الحلة وما هذه الصفرة وهذا الطعام فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عماراً هذه حلة

كساكها محمد بن عبد اللّه ختنك وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة، فأنكر أن يكون زوجه، وخرج يصيح حتى جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ: فجاءُوه فكلموه. فقال أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه قال إن كنت زوجته فسبيل ذاك وإن لم أكن فعلت فقد زوجته.

وقد ذكر الزهري في سيره أن أباها زوجها منه وهو سكران نحو ما تقدم حكاه السهيلي. قال المؤملي: المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه وهذا هو الذي رجحه السهيلي. وحكاه عن ابن عباس وعائشة قالت وكان خويلد مات قبل الفجار، وهو الذي نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد، وقام معه جماعة من قريش ثم رأى تبع في منامه ما روعه، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه.

في شهادة الخصوم له صلى الله عليه وسلم قديماً وجديداً

وشهادة الخصوم في هذا الباب لها وزنها الكبير إذ تدلك على مبلغ الثقة التي كان يتمتع بها رسول الله عند الجميع، ولكن بعض الناس استغرب واستكبر فأنكر دون وجود مبرر لهذا الإنكار وهذه نصوص تؤكد لك هذا الذي قلناه.

«أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذْ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله أدعوك إلى الله». فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أنا ما تقول حق لاتبعتك فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليَّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء. إن بني قصى قالوا: فينا الحجابة. قلنا نعم ثم قالوا: فينا السقاية قلنا نعم، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل» وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه.

وأخرج الترمذي عن علي أن أبا جهل قال للنبي ﷺ إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى ﴿**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾.

«وأخرج ابن عساكر عن معاوية (رضي الله عنه) قال: خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هنداً وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لي إذ سمعنا رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان: انزل يا معاوية حتي يركب محمد فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ﷺ فسار أمامنا هنيهة ثم التفت إلينا فقال: يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لتموتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار، وأنا أقول لكم بحق وإنكم لأول من أنذرتم

ثم قرأ رسول الله ﷺ «حم تنزيل من الرحمن الرحيم.. حتى بلغ - قالتا أتينا طائعين» فقال له أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟ قال نعم ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة وركبتها وأقبلت هند على أبي سفيان: ألهذا الساحر أنزلت ابني قال: لا والله ما هو بساحر ولا كذاب» وأخرجه الطبراني أيضاً.

وروى البخاري ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل كما حدث بها أبو سفيان ابنَ عباس ومنها سؤاله لأبي سفيان هذا: «قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. قلت لا» وفي آخر القصة يقول هرقل لأبي سفيان: «وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى».

وأخرج الشيخان والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** صعد ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد! قال أبو لهب: تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا فنزلت: **﴿تبت يدا أبا لهبٍ وتب﴾**. من هذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد ﷺ كانت متوفرة ولم يكن هذا الموضوع فيه شك أبداً وهذا الذي يعلل لنا:

ظاهرة الإيمان به من قبل من حاربوه واحداً فواحداً طوعاً لا إكراهاً أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب.. ذلك لأنهم ما كانوا يشكون في أن محمداً صادق، ولكن فاجأهم بشيء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فأنكروه، حتى إذا ذهب هول المفاجأة وحكموا عقولهم التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد ﷺ فتولد عن ذلك إيمان.

ظاهرة الإخلاص له بعد الإيمان: فبعضهم لم يؤمن إلا آخراً بعد أن غلب كبقايا قريش فإنهم أخيراً غلبوا للإسلام، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات، حتى إذا دخلوا فيه تسليماً للأمر الواقع وإذا بهم مخلصون لرسول الله ﷺ كأتم ما يكون الإخلاص، ومتفانون في الإسلام بعد أن زالت عن أعينهم غشاوات، من بعدها تبينوا أن محمداً هو الأخ الكريم والابن الكريم فكانت معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساساً لإخلاصهم في طريقهم الجديد الذي ساروا به بعد ذلك فرحين.

وبعد فهذه شهادة خصوم: بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة وبعضهم مات على كفره ولكن الجميع حتى في أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمداً ﷺ صادق.

في تعبده قبل البعثة

يذكر أهل السير أن النبي ﷺ كان يتعبد قبل البعثة على دين الحنيفية وذلك في غار حراء قال ابن كثير:

وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه، لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عبد الملك بن عبد اللّه بن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة ـ قال: وكان واعية ـ عن بعض أهل العلم قال: وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسّك فيه وكان من نسك قريش في الجاهلية، يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة. هكذا روي عن وهب بن كيسان أنه سمع عبيد بن عمير يحدث عبد اللّه بن الزبير مثل ذلك، وهذا يدل على أن هذا كان من عادة المتعبدين في قريش أنهم يجاورون في حراء للعبادة ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وثـورٍ ومَـن أرْسَـى ثَـبِـيـراً مَـكـانَـه ... وراقٍ لِـيَـرْقـى فـي حِـراء ونـازِلِ

وهكذا صوبه على رواية هذا البيت كما ذكره السهيلي وأبو شامة وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمهم الله، وقد تصحف على بعض الرواة فقال فيه: وراق ليرى في حر ونازل ـ وهذا ركيك ومخالف للصواب والله أعلم.

وحراء يقصر ويمدّ ويصرف ويمنع، وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المار إلى منى، له قلة شرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية وما أحسن ما قال رؤبة بن العجاج:

فَـلا وربِّ الآمِـنـاتِ الـقُـطَّـن ... وربِّ رُكـنٍ مـن حِـراءَ مُـنْـحـنـي

وقوله في الحديث: والتحنث التعبد، تفسير بالمعنى، وإلا فحقيقة التحنث من حنث البنية فيما قاله السهيلي الدخول في الحنث ولكن سمعت ألفاظاً قليلة في اللغة معناها الخروج من ذلك الشيء كحنث أي خرج من الحنث وتحوب وتحرج وتأثم وتهجد هو ترك الهجود وهو النوم للصلاة وتنجس وتقذر أوردها أبو شامة. وقد سئل ابن الأعرابي عن قوله يتحنث أي يتعبد. فقال: لا أعرف هذا إنما هو يتحنف من الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام. قال ابن هشام: والعرب تقول التحنث والتحنف يبدلون الفاء من الثاء، كما قالوا جدف وجذف كما قال رؤبة:

لو كان أحجاري مع الأجداف

يريد الأجداث. قال وحدثني أبو عبيدة أن العرب تقول فُمّ في موضع ثمّ. قلت: ومن ذلك قول بعض المفسرين وفومها أن المراد ثومها.

وقد اختلف العلماء في تعبده عليه السلام قبل البعثة هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل شرع نوح وقيل شرع إبراهيم. وهو الأشبه الأقوى. وقيل موسى، وقيل عيسى، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به. ولبسط هذه الأقوال ومناسباتها مواضع أخر في أصول الفقه والله أعلم.

الجبل الذي يقع في قمته هذا الغار يسمى جبل النور، وهو يقع إلى الشمال الشرقي من مكة، ويبعد عنها حوالي خمسة كيلومترات ويذهب إليه الآن كثير من الناس للتبرك والزيارة، وصعود هذا الجبل شاق للغاية، وقد يحتاج الصاعد إلى استعمال يديه ورجليه في بعض الأحايين ليتقي السقوط، وفي قمة هذا الجبل بركة من ماء لا ينقطع ماؤها صيفاً ولا شتاء، وهذا المكان جوُّه جميل للغاية ونقي من الأتربة، وجميل الهواء، والغار يشبه حجرة صغيرة مدخلها إلى الأمام وفي خلفها الجبل الشاهق وأمر عجيب كيف كان يصعد الرسول ﷺ هذا الجبل ويختلي بهذا الغار.

في بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبدء الوحي

من المعلوم بالضرورة أن جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده لم ينطقوا فيما بلغوه عن ربهم عن الهوى.

وعلى هذا النحو كان التكليف بالصلوات الخمس إلى الرسول ﷺ ليلة المعراج، دع عنك ما يلوكه المستشرقون الماديون من أنهم لا يكذبون محمداً ﷺ فيما أخبر به عن الوحي ولكنهم يقولون: إن منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب، لأن الغيب لم يثبت عندهم وجوده وأيسر ما يرد به افتراؤهم أمران:

أولهما: ما استفاض من أمر أمانة النبي ﷺ قبل مبعثه.

ثانيهما: أن الله تعالى حرم على رسوله ﷺ أن يخوض فيما خاض قومه من قرض الشعر والتعمل له على ما يشهد به قوله سبحانه ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ (سورة يس ٦٩).

ولقد كان وحياً ذلك الذي يصدر عنه النبي ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً.

يذكر أهل السنة أن عمره عند البعثة كان أربعين سنة وينقلون واقعة بدء الوحي.

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا

الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: **﴿اقرأ بسْمِ ربكَ الذي خلقَ خلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ إقرأ وربُّكَ الأكرَمُ الذي عَلَّم بالقَلَمِ علَّم الإنسانَ ما لم يعلمْ﴾** فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زمِّلوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف. وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان أمراً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أوَمُخْرجيّ هم؟» فقال: نعم. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يَنْشَب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة. حتى حزن رسول الله ﷺ: - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا كمثل ذلك. قال فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك. هكذا وقع مطولاً في باب التعبير من البخاري. قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد اللّه الأنصاري قال - وهو يحدث عن فترة الوحي - فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض. فرعبت منه. فرجعت فقلت: زملوني، زملوني فأنزل الله: **﴿يا أيُّها المدثر، قمْ فأنذِرْ، وربَّكَ فكبِّرْ، وثيابَكَ فطهِّرْ، والرجزَ فاهجر﴾** فحمي الوحي وتتابع. ثم قال البخاري تابعه عبد اللّه بن يوسف، وأبو صالح، يعني عن الليث، وتابعه هلال بن داود عن الزهري، وقال يونس ومعمر: - بوادره. وهذا الحديث قد رواه الإمام البخاري رحمه الله في كتابه في مواضع منه.

وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث الليث به، ومن طريق يونس ومعمر عن الزهري كما علقه البخاري عنهما، وقد رمزنا في الحواشي على زيادات مسلم ورواياته ولله الحمد وانتهى سياقه إلى قول ورقة: أنصرك نصراً مؤزراً.

فقول أم المؤمنين عائشة أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، يقوي ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار عن عبيد بن عمر الليثي أن النبي ﷺ: قال: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب. فقال: اقرأ، فقلت ما أقرأ؟ فغطني، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني» وذكر نحو حديث عائشة سواء، فكان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرّحاً بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في اليقظة.

وقد قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه دلائل النبوة: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا جناب بن الحارث حدثنا عبد اللّه بن الأجلح عن إبراهيم عن علقمة بن قيس. قال: إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد وهذا من قبل علقمة بن قيس نفسه وهو كلام حسن يؤيده ما قبله ويؤيده ما بعده.

في أطوار دعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقد مرت بثلاثة مراحل:

المرحلة الفردية:

وقد آمن في هذه المرحلة زوجه وابن عمه علي، وزيد مولاه ثم دعا الرسول أبا بكر، وكانت له به صلة فآمن به، وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون، عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد اللّه وأبو عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم، الذي اتخذت داره لتكون مقراً للدعوة السرية للدين الجديد، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالي والفقراء، وقد استمرت هذه الدعوة ثلاث سنوات.

دعوة بني عبد المطلب

وهي المرحلة التي تلت المرحلة الأولى، وكانت تنفيذاً لقول الله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء ٢١٤).

وقد دعا النبي ﷺ بني عبد المطلب ليجتمعوا به، فلما حضروا قال لهم: أني ما أعلم

شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فلقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وبلغهم دعوته، فصدق به بعضهم وكذب آخرون، وكان عمه أبو لهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه، فقد هتف به أبو لهب قائلاً: تباً لك، ألهذا دعوتنا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿**تبت يدا أبي لهب..**﴾ (إلى آخر سورة المسد).

الدعوة العامة

وكانت هذه الخطوة في الدعوة تنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾ (الحجر ٩٤) فانطلق الرسول ﷺ على إثر نزول هذه الآية يجاهر بالدعوة، يدعو السادة والعبيد، والغرباء والأقربين، ثم يتجاوز مكة إلى البلاد الأخرى.

وقد تناول الكتاب كل جوانب حياة المصطفى ﷺ من حيث حياته البشرية وحياة أزواجه وحياة بنيه وحياة صحابته، ومن حيث تعبده وصلاته وصفاته الخلقية والخُلقية، وقد جمع في ذلك فأوعى. وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السيرة بين السلف والخلف

لقد نالت حياة النبي ﷺ بما حفلت به من أقوال وأفعال وتقريرات عناية العلماء قديماً وحديثاً، وكان تأليف العلماء في السيرة قديماً يحمل طابعاً يرغب عنه الجم الغفير من مسلمي العصر الحديث الذين لم يكن لهم إلمام علمي واسع رغبة في مطالعة أحوال النبي ﷺ فلم يجدوا بداً من اللجوء إلى الكتابات العصرية في السيرة النبوية وكان من أفضل بما نبّه على ذلك المفكر الإسلامي الكبير أنور الجندي مبيّناً ما لها من مميزات وعيوب، وقد آثرنا إثبات ما نشر عنه في مؤتمر السيرة النبوية برمّته تتميماً للفائدة»،فقال:

إن العمل الذي قام به الكتاب العصريون لتقديم السيرة النبوية. قد أدى دوراً لا بأس به، وأحدث آثاراً طيبة في نفوس المسلمين. ولكنه لم يكن عملاً أصيلاً على طريق التطور الطبيعي لكتابة السيرة من منطق المفهوم الإسلامي الجامع القائم على أساس التقدير الكامل للوحي والنبوة والغيبيات والمعجزات.

ومن هنا كان عجزه وقصوره الذي جعله في تقدير الباحثين قائماً على التبعية والاحتواء للمناهج الغربية التي لم تكن عمليتها إلا مظهراً خادعاً يخفي من ورائه الأهواء والخلافات بين الأديان ونزعة الاستعلاء الغربية ومطامع النفوذ الغربي في السيطرة على الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي حتى لا يحقق ابتعاثه الأصيل هدفاً يجدد حضارة الإسلام ويفتح الطريق لقيام المجتمع الإسلامي.

لقد احتوى هذا العمل على مجموعة من الأخطاء الأساسية التي كان مصدرها تبني أسلوب المستشرقين وتبني وجهات نظرهم وهم أساساً لا يعترفون بالإسلام ديناً خاتماً ولا بالنبي محمد. ولا يؤمنون بالوحي ولا يفرقون كما يفرق المسلمون بين الألوهية والنبوة.

وفي مقدمة هذا البحث، نؤكد أنَّ كتابات العصريين في السيرة النبوية كانت في عصرها أمراً محبباً أقبل الناس عليه وقدّمت سيرة الرسول وعظمة الإسلام للجماهير التي كانت لا تلم بالدراسات العلمية إلا قليلاً.

فقد كتبت هذه الفصول أول الأمر في المجلات الأسبوعية، الذائعة (السياسية الأسبوعية. والرسالة) مما كان لها أثرها في الانتشار والذيوع. وقد اختلفت فعلاً عما سبقها من كتابات السيرة التي نشرت في مؤلفات لغلبة الأسلوب الصحفي الميسر.

ولقد كانت هذه الكتابات في تقدير المؤرخين والباحثين على حالتين:

الحالة الأولى:

العامل القريب والمباشر وهو ظهور حركة التبشير المسيحي الضخمة في القاهرة عن طريق الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٢ وتنصير عدد من الطلاب المسلمين بها وكان ذلك جزءاً من موجة ضخمة قام بها الغرب بعد أن استردت الفاتيكان الأموال الطائلة التي كانت قد احتجزتها الحكومة الإيطالية عنها.

الحالة الثانية:

أثر الحرب العالمية الثانية في نفوس الناس بالدعوة إلى الرجعة إلى الدين والتطلع إلى آفاق جديدة تقدمها رسالات السماء وفي مقدمتها الإسلام.

غير أن هناك عوامل أخرى خفية وراء ظواهر الأحداث تحدثت عنها كتابات الباحثين والمراقبين لهذه الأحداث منها:

أولاً: رغبة حزب الأحرار الدستوريين في كسب مشاعر الوطنيين بعد أن عرف عنه أنه الحزب الذي يجمع دعاة التغريب وأساطينه والذي صدرت من تحت عباءته الكتب التي أثارت الضجة وخالفت مفاهيم الإسلام الأساسية وهزت مشاعر الناس وفي مقدمتها (الشعر الجاهلي لطه حسين) و (الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق). وكانت الفكرة التي استقر عليها الرأي هو الدخول إلى مشاعر المسلمين من طريق الكتابة عن الرسول ﷺ (هذا بالنسبة لكتاب حياة محمد للدكتور هيكل).

ثانياً: الموقف الذي أحدثته الحرب العالمية من ائتلاف بين البلاشفة والرأسماليين في

وجه النازية وما تسرب إلى البلاد العربية من دعايات شيوعية ورغبة الغرب في مواجهتها عن طريق تزييف مفهوم الماركسية عن البطولة الجماعية ورد الاعتبار للبطولة الفردية التي كانت عنواناً على الفكر الليبرالي الغربي. ومن هنا كانت الكتابة عن البطولات الإسلامية من منطلق غربي «هذا بالنسبة للعبقريات».

وقد ظهرت هذه الكتابات متفرقة في الصحف: حياة محمد في ملاحق السياسة ١٩٣٢ على أنها ترجمة وتلخيص لكتاب إميل درمنجم وكانت تنشر تحت هذا العنوان (حياة محمد. تأليف إميل درمنجم. تلخيص وتعليق الدكتور محمد حسين هيكل) ثم ظهرت فصول (على هامش السيرة) في الأعداد الأولى من مجلة الرسالة التي صدرت ١٩٣٣ بقلم الدكتور طه حسين. أما فصول (عبقرية محمد) فقد بدأت عام ١٩٤٢ بقلم الأستاذ العقاد في أحد الأعداد السنوية الخاصة بالهجرة بعد أن اشتعلت الحرب العالمية الثانية بعامين.

وكان الكتاب الثلاثة من المعروفين في مجال الدراسات الأدبية والسياسية بأنهم عصريون ليبراليون علمانيون، قليلو الاهتمام بالدراسات الإسلامية. بل كانت جريدة السياسة تحمل حملات ضخمة على الإسلام (هيكل ـ طه حسين ـ علي عبد الرازق ـ محمد عبد اللّه عنان) وتؤازر الغزو الثقافي، بل لقد حمل الأستاذ العقاد حملة ضارية على الكتب الإسلامية التي صدرت عام ١٩٣٥ في جريدة روز اليوسف اليومية وعدَّها ظاهرة خطيرة وقال: إن هذه الكتابات بمثابة مؤامرة على القضية الوطنية، وتردد يومها أن الدكتور محمد حسين هيكل قد أحرز قدراً ضخماً من الكسب المادي من كتابه ومن ثم أصبحت الكتابة الإسلامية موضع تقدير في نظر الكتاب، غير أن أخطر ما هنالك أن الدكتور هيكل وعلي عبد الرازق أعلنا موقفاً خطيراً في مجلس الشيوخ عندما أثير النقاش في كتابات طه حسين ووقفا للدفاع عنه وتبين من ذلك أن الكتابة عن الإسلام لم تكن تصدر عن إيمان برسالة الإسلام (ديناً ودولة) وإنما كانت من الأعمال السياسية والحزبية. وإذا كانت كتب: حياة محمد، وعلى هامش السيرة، والعبقريات، قد هزت وجدان الشعب المسلم وقتها وأحدثت نوعاً من الإعجاب والتقدير فإن هذا كان هدفاً مقصوداً من الجهات التي شجعت ذلك وهو:

أولاً. مواجهة حركة اليقظة الإسلامية التي كانت تهدف إلى تقديم الإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع بكتابات إسلامية من أقلام لها مكانتها السياسية في الجماهير لتحويل التيار نحو المفاهيم العلمانيةً والليبرالية وهو ما يسمى (تقديم البديل) المتشابه ظاهرياً والمختلف جوهراً وهو بهذا استجابة ظاهرية للموجة الإسلامية ومحاولة لاحتوائها.

ثانياً: فرض المفهوم الغربي على السيرة والتاريخ الإسلامي وهو المفهوم المفرغ من الوحي والغيبيات والمعجزات.

ولكن هذه الظاهرة بالإعجاب بكتب الليبراليين عن السيرة لم تدم طويلاً فقد تكشفت خفاياها وظهر أن منهج الكتابة في هذه المؤلفات لم يكن إسلامياً أصيلاً وإنما تشوبه التبعية لمفاهيم الاستشراق والتغريب حتى يمكن أن يقال في غير ما حرج: إن المؤلفات الثلاثة الكبرى (حياة محمد ـ على هامش السيرة ـ عبقرية محمد) هي نتاج غربي يعتمد على مذاهب الكتابة الغربية ويخضع لكثير من أخطائها ويسقط بحسن نية وراء مفاهيمها الكنسية والمادية. ويختلف اختلافاً واضحاً عن مفهوم الإسلام الجامع.

ولقد تطورت الدراسات الإسلامية في ظل حركة اليقظة الإسلامية واستطاعت أن تتحرر من هذه المرحلة التي كانت تمثل التبعية للفكر الغربي في دراسات التاريخ الإسلامي وكتابة السيرة وهي التي قامت على مفهوم يتسم بالتأويل للمعجزات ومحاولة حجب الكثير من وجوه الإعجاز ومتابعة المستشرقين في مفاهيمهم لسيرة النبي الكريم.

وفي الكتب الثلاثة نجد أن العمل يبدأ غربياً ثم يفرض على سيرة الرسول.

فالدكتور هيكل يبدأ عمله في كتابة السيرة بترجمة كتاب (أميل درمنجم) الكاثوليكي الفرنسي ويتبنى كثيراً من آرائه التي يمكن أن توصف بالخطأ أو عدم القدرة على فهم الإسلام أو تبني عقائد النصارى أو متابعة هدف يرمي إلى التقريب بين الأديان أو الدعوة إلى وحدة الأديان (وهو هدف ضال).

والأستاذ العقاد يبدأ عمله بمنطق غربي محض هو فكرة (العبقرية) التي تناولتها كتابات الغربيين شوطاً طويلاً عن نوع من الامتياز أو الذكاء في مجال الفن والموسيقى والشعر والقصة في الغرب ويسحب هذا الوصف على النبي المؤيد بالوحي وعلى العظماء من الصحابة دون تفرقة واضحة بين النبي والصحابي.

والدكتور طه حسين يعلن في غير ما حرج أنه استوحى (هامش السيرة) من كتاب جيل لومتير عنوانه (على هامش الكتب القديمة) وأنه يحشد فيه كل ما استطاع من أساطير اليونان والمسيحية واليهودية والإسرائيليات وهكذا يتبين تبعية هذه الدراسات أصلاً للفكر الاستشراقي.

ويمكن تصنيف الأخطاء التي وقعت فيها المدرسة التغريبية في كتابة السيرة على هذا النحو:

أولاً: متابعة مناهج ودراسات كتاب الاستشراق

فقد عمد الكتاب الكبار الثلاثة إلى البدء في كتابة السيرة من منطلق غربي استشراقي.

فالدكتور هيكل معجب بكتاب إميل درمنجم وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلاف بين الإسلام والنصرانية ومن ذلك نراه يتابعه في مجموعة من الآراء تختلف مع مفهوم الإسلام الأصيل وإن كان هيكل قد رد على آراء المستشرقين في مسائل إلا أنه قد خضع لمناهج المستشرقين ولمفهومهم في الفلسفة المادية، بالنسبة للمعجزات، وبالنسبة للإسراء والمعراج وبالرغم من نوايا الدكتور هيكل الطيبة في تقديم صورة بارعة للرسول ﷺ فإن موقفه من إنكار المعجزات والغيبيات وتجاهلها حتى وإن وردت في القرآن والسنة ـ على حد قوله ـ كان مأخذاً كبيراً في تعليل قيمة العمل الذي قام به.

فقد أنكر عدداً من المعجزات الثابتة بصريح القرآن ومتواتر السنة، كنزول الملائكة في بدر، وطير الأبابيل، وشق الصدر، والإسراء، وأنّ (اقرأ) كانت مناماً وأولَ ذلك كله إرضاء للمنهج العلمي الغربي الذي أعلنه وأعلن التزامه به فاعتبر الإسراء سياحة الروح في عالم الرؤى، ووصف الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين في غزوة بدر بالدعم المعنوي، ووصف طير الأبابيل بداء الجدري، واعتبر شق الصدر شيئاً معنوياً، واعتبر لقاء جبريل بالنبي في حراء مناماً، وبذلك عمد إلى تفريغ تاريخ النبي من الحقائق الغيبية والمعجزات وقصر موقفه على أن للنبي معجزة واحدة هي القرآن الكريم مع أنَّ الخوارق والمعجزات لا يمكن أن تتنافى في جوهرها مع حقائق العلم وموازينه وقد سميت خوارق لخرقها لما هو مألوف أمام الناس، وما كان للمألوف أو العادة أن يكون مقياساً علمياً لما هو ممكن وغير ممكن، ولما كان الله تبارك وتعالى هو صانع النواميس فإنه هو وحده القادر على خرقها متى شاء. يقول الشيخ محمد زهران:

ولقد علل الدكتور هيكل إنكاره جميع المعجزات المحمدية (غير القرآن) بأنها مخالفة للسنة الإلٰهية، وزعم أن روايات معجزاته ﷺ موضوعة، قصد واضعها إما أن يجعل لنبينا مثل ما لموسى وعيسى عليهما السلام، وإما أن يشكك الناس في صحة آية ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾.

ولا شك أن دعوى استحالة خرق العادات المعبر عنه في كتابه بمخالفة السنن يستلزم التسليم بها إنكار الإسلام من أصله وتكذيب الأديان كلها ومنها إنكار الأحاديث التي أطبق على قبوله أئمة الحديث وغيرهم مع تواترها والإجماع على مضامينها.

موقف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وفاة ابنه إبراهيم:

كذلك فقد كانت الصورة التي رسمها الدكتور هيكل عن حزن الرسول ﷺ لوفاة ابنه إبراهيم مما لا يتفق مع جلال النبوة وعظمة الرسالة إذ صوره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واضعاً ولده في حجره وعيناه تذرفان الدموع مدراراً ولسانه ينطق بألفاظ يشيع منها الحزن والأسى

وتقطر غماً وتأثراً مما يشبه أن يكون ضعفاً عن احتمال صدمة الحادث...

والحقيقة أن رسول الله ﷺ أسمى قدراً من أن يصدر منه ما صوره الدكتور هيكل هياماً في الخيال والشعر والقصص. وإنما أظهر رسول الله ما أظهر من حزن سامٍ وذرفت عيناه دموعاً مطهرة لا يذرفها إلا لله. ولا يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد بدرت منه الألفاظ التي نسبها إليه الدكتور هيكل منساقاً مع شعوره حين حزن هو على فقد ولده ولأجل هذا غير اسم كتاب رحلته إلى أوروبا إلى عنوان (ولدي). إن رسول الله يعلم علم اليقين وحق اليقين أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأن ولده إبراهيم لن يعيش طويلاً حيث يقول الله تبارك وتعالى ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ ولقد مات له ولدان من قبل احتسبهما في رضى وإيمان.

تقبل وجهات نظر درمنجم في مسائل أساسية:

وقد أخذ على الدكتور هيكل تقبل وجهات نظر إميل درمنجم في تصوره أن النبي قد تأثر بأهل الكتاب في الجزيرة العربية أو في ذهابه إلى الشام أو في إرسال بعض أصحابه إلى الحبشة المسيحية، فقد جرى هيكل وراء عبارات درمنجم دون أن يتبين مكره وخبثه حين حاول أن يصور دعوة النبي أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية، ويتساءل الدكتور حسين الهراوي الذي ناقش هيكلاً في هذه النقطة: هل حقيقة كانت الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية. ويقول إن دمرنجم شأن المستشرقين بتر هذه القصة بصفة مشوهة للحقيقة. فلم يكن الدافع للنجاشي ورعه وتقواه ولم يكن سبب عطفه ورحمته ذلك الدافع الديني بل الدافع الحقيقي أن هذا النجاشي كان عادلاً وهذه هي الخلة التي ذكرها النبي حين قال: «لأنَّ فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق».

ومن مراوغات درمنجم تفسيره للآية الكريمة:

﴿**فإنْ كنت في شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك**﴾. يريد درمنجم أن يقول: إن القرآن طلب إلى النبي سؤال أهل الكتاب وأنَّ الله تعالى رضي للناس الإسلام ديناً مع بقاء الأديان التي سبقت، وحدةً مندمجةً. فيما أسماه الكمال الروحي. ولا ريب أن هذه مراوغة خطيرة من الاستشراق يحاول بها أن يفسر الآيات القرآنية تفسيراً يخدم بها أهدافه، والحقيقة أن الإسلام جاء ليظهره الله على الدين كله وأن الأديان كلها التي سبقت كانت موصلة إليه لولا أن قادتها حرفوها.

ثانيا: ظاهرة إنكار المعجزات وتأويلها إرضاء للمنهج الغربي وباسم إعلاء نظرة العقل:

هذه الظاهرة واضحة تماماً في كتابات هيكل وطه حسين والعقاد وقد قامت عليها

كتاباتهم في (حياة محمد وهامش السيرة والعبقريات) وكانت لها جذور ممتدة في كتابات الشيخ محمد عبده وفريد وجدي وقد هاجمها الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية في كتابه الضخم (موقف العلم والعالم من رب العالمين).

وقد جرى الكتاب الثلاثة هذا المجرى باسم (المنهج العلمي الغربي).

والحقيقة أن المنهج العلمي هو منهج إسلامي الأصل والمصدر على خلاف دعوى بعض المتأثرين بالدراسات الغربية. ولقد كان من أبرز أهداف التغريب التأثير في أسلوب كتابة التاريخ الإسلامي وفي مقدمة ذلك (سيرة النبي الأعظم) إيماناً منهم بأن هذه الصفحات الباهرة من شأنها إذا عرضت عرضاً صحيحاً أن تبعث الأحاسيس العميقة في قلوب شباب المسلمين ومن هنا كانت محاولتهم المسمومة في إدخال أسلوب عصري له طابع براق ولكنه يخفي من وراء ذلك إطفاء الأضواء التي يقدمها هذا التاريخ من حيث الصلة بالله تبارك وتعالى والإعجاز الرباني الواضح في كل مواقف حياة النبي ﷺ وفي تاريخ الإسلام وفتوحاته. ولما كان هذا العمل هو بمثابة هدف واضح الدلالة في مخطط الاحتواء الغربي الذي يرمي إلى التقليل من شأن البطولات الإسلامية ووضعها موضع المقارنة مع البطولات الغربية من خلال النواحي المادية وحدها فقد حجبت هذه الدراسات جانباً كبيراً من أثرها المعنوي والروحي الذي يهز النفوس ويملؤها بالثقة واليقين في عظمة هذا الدين الخاتم وفي سعة العطاء الرباني لنبيه.

ومن هنا كان ذلك الأسلوب المسمى بالعلمي الذي اصطنعه كتاب لهم أسماء لامعة ولم تكن سابقة في الدراسات الإسلامية بل كانوا غارقين في دراسات الغرب وبطولات رجاله (جان جاك روسو، فولتير، مونتسكيو، أرسطو الخ) في محاولة للتقليل من قدر أحداث السيرة النبوية تحت اسم العقلانية وإنكار المعجزات والجوانب الغيبية والإعراض عن الجوانب ذات الصلة بالإيمان والعقيدة واليقين والتقوى وغيرها.

ولقد استطال الدكتور هيكل في مقدمة كتابه بإعجابه وتبنيه للطريقة العلمية الحديثة وأشار إلى ميزاتها وأفضليتها. ولكن الشيخ محمد مصطفى المراغي في مقدمته لكتاب حياة محمد لم يخف عليه هدف هذا فقال: «أما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه وقد ساير الدكتور (هيكل) غيره من العلماء في هذا، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين. انظر كتب الكلام تراهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله. فيقول آخرون: لا، إن أول واجب هو الشك، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان وقد جرى الإمام الغزالي على الطريقة نفسها، وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدّر ورتب ووازن وقرب وباعد ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق وإلى ما

اهتدى إليه من الآراء. وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية (تجريد النفس) عما ألفته من العقائد. ثم البحث والنظر فطريق التجريد طريق قديم وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة فليس هناك جديد عندنا. ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعملي في الشرق وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوب ناصع وأفادوا منها في العلم والعمل رجعنا نأخذها ونراها طريقاً في العلم جديدة» ا هـ.

وهكذا تبين للمدرسة الحديثة أن الإسلام هو واضع الأسس لهذا المنهج العلمي الذي أخذوا به، وإن لم يعطوه حقه من الأصالة الإسلامية بل قصروه على الجوانب المادية ففاتهم خير كثير، نظراً لأن خلفياتهم مع الأسف كانت عربية ولم يكونوا قد قرأوا من التراث الإسلامي ما يمكنهم من معرفة الحقيقة كاملة.

لقد كتبت هذه الدراسات بالرغم من حسن النية عند البعض بصورة قاصرة خالية من الإيمان اليقين تحت اسم العلم الذي لا يعترف للنبي ﷺ إلا بمعجزة واحدة هي القرآن، وكان من رأي فريد وجدي وهيكل الإعراض عن الخبر الصادق الذي ثبت في الكتاب والسنة إذا عارض طريق العلم وبذلك حجبوا عن السيرة النبوية أهم جوانبها وأخطرها على الإطلاق وهو (جانب معجزة الوحي الإلٰهي وعالم الغيب).

ولطالما ردد هيكل وطه حسين وغيرهما كلمة العلم والمنهج العلمي. والحقيقة أنهم ما كانوا يقصدون (العلم التجريبي) الذي يقوم في المعامل على أساس الأنابيق. وإنما العلم الذي قصدوا إليه والذي لقن لهم هو الفلسفة المادية التي قدمها التلموديون وكانت قد استفحلت في الغرب بعد القضاء على الفلسفة المثالية المسيحية، وهي فلسفة التنوير كما يقولون. قامت على إنكار جوانب الإنسان الروحية والمعنوية وتصويره بصورة الحيوان والحيوان الناطق والخاضع لشهوتي الطعام والجنس (ماركس وفرويد) وقد امتد هذا الأثر إلى علوم الاجتماع والأخلاق والتربية والأدب والسياسة جميعاً ولم يكن هذا في الحقيقة هو العلم، وما كانت هذه الصيحات تساوي شيئاً لأن هذه المفاهيم كانت سرعان ما تتعثر وتسقط أمام المتغيرات فضلاً عن أنه قد ثبت ـ من بعد ـ عجز العلم التجريبي عن أنْ يقول (كيف) وعجز الدراسات المادية أن تكشف سرائر العلوم الإنسانية.

ولقد كانت هذه الدراسات مع الأسف خاضعة لفكرتين مسمومتين قائمتين في نفوس وعقول كتاب الغرب والتغريب هما:

١ـ فكرة (إخضاع الدين لمقاييس العلم) في أفق الفكر الإسلامي كما فعل الغرب وهي

فكرة مردودة لعمق الفوارق بين الإسلام وبين المسيحية وقد تبين من بعد أنه ليس في الإمكان إخضاع الدين لمقاييس العلم.

٢ـ تخليص الفكر الإسلامي من سائر الغيبيات التي لا تخضع لمقاييس العلم الحديث. ومن هنا كانت محاولة إخضاع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لهذا المفهوم وهو ما جرى عليه كتاب التغريب من استبدال السند والرواية وقواعد التحديث وشروطه بأسلوب جديد (زائف) من الاستنتاج الشخصي المتصل بذوق ومزاج كل كاتب على حدة. فطه حسين تابع لمذهب العلوم الاجتماعي،. والعقاد تابع لمذهب العلوم النفسية، وهيكل تابع لمذهب تين وبرونتير الخ. هذا الأسلوب الذاتي خطير جداً لأنه لا يقوم على قواعد أساسية علمية وإنما يقوم على أساس (الظن وما تهوى الأنفس) هذا الأسلوب يتيح لأصحابه أنْ يقبلوا وقائع وأحداثاً وأنْ يغضوا عن غيرها ما يختلف مع وجهتهم المسبقة، من هنا كان خطورة هذا المذهب في (استبعاد ما يخالف المألوف مما يدخل في باب المعجزات والغيبات) في سيرة النبي ﷺ.

كذلك فقد حاول دعاة التغريب الاستفادة من هذا الاتجاه ملحظاً خطيراً هو القول بأن الغاية منها هو ما أطلق عليه (فكرة الاندماج الكلي في الكمال الروحي) وأنها جميعاً وحدة متصلة تربط البشرية في فكرة واحدة.

وهذه محاولة مضللة لأن الأديان مترابطة من حيث أن أولها يوصل إلى آخرها ولكن رؤساء الأديان غيروا وبدلوا وبذلك جاء الإسلام مرة أخرى يربط نفسه بدين إبراهيم ليعيد هذه الوحدة في مفهومها الصحيح.

ثالثاً: إنكار معطيات الرسالة الخاتمة:

ومن ذلك ما أورده الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني) من أنه كان للعرب في الجاهلية نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية كان الإسلام تاجاً لها أي أن الإسلام كان نتيجة وتاجاً لتلك النهضة لا سبباً لها. يقول: لأنه لا يمكن لرجل فرد مثل النبي محمد ﷺ أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود ومن الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى السيادة القاهرة، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون هذه الأمة قد استعدت في أعماقها وفي ضمائرها وفي عقولها بحيث استطاع (رجل واحد) أنْ يكوِّنَ منها (أمة متحدة) وكانت قبائل متفرقة وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوروبا في زمن وجيز ولو كان يكفي أن يكون الإنسان نبياً ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض.

وهذا واحد من اتهامات التغريب والاستشراق المسمومة حملها قلم رجل مسلم اعتقد هذا الاعتقاد وتعلم في الغرب يحاول أن يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا إلى النبوة والرسالة وما أنزل الله على الرسول من دين ولكن إلى علوم وآداب وتجارب كانت عند العرب وأن كل ما فعله النبي هو أنه نظمها حتى استطاع أهلها أن يسودوا في القارات الثلاث في زمن وجيز. يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: إن تاريخ العلوم في الأمة العربية بعد الإسلام معروف كما أن مقاومة العرب للنبي ودعوته ومحاربتهم له ولها معروفة ولكن الرجل ينكر التاريخ ويفتري تاريخاً آخر، ويزعم زعماً لا يجوز ولا يستقيم في منطق أو تفكير إلا إذا كان القرآن كلام النبي، كلام محمد العربي، لا كلام الله. عندئذ فقط يعقل أن يكون العربُ على ما وصف الدكتور من نهضة وعلم وأدب لأن القرآن أكثر من نهضة وعلم وأدب ولا يعقل إنْ كان كلام بشر أن يأتي صاحبه في أمة جاهلة كالتي أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شرقيين ومستشرقين ومؤرخو الإسلام.

وهكذا نجد الدكتور زكي مبارك يهدر مقام النبوة الإسلامية بمقاييس المادية البحتة التي صورت له كما صورت للمستشرقين أنه من المستحيل أن تؤدي رسالة النبي محمد في خلال بضعة عشر عاماً إلى قيام هذا الملك الباذخ، وهذا هو إنكار المعجزات والغيبات في فهم السيرة النبوية وتاريخ الإسلام.

رابعاً: إحياء الأساطير في سيرة النبي:

يقول الدكتور طه حسين في بحث نشره في كتاب (الإسلام والغرب) الصادر عام ١٩٤٦ في باريس: لقد حاولت أن أقص بعض الأساطير المتصلة بالفترة التي سبقت ظهور النبي ﷺ ثم قصصت مولده وطفولته. ونشرت هذه السلسلة بعنوان مقتبس من جيل لوميتر وهو (على هامش السيرة). ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلت موقدين كبيرين: أحد الكتابين لجيل لوميتر عنوانه (على هامش الكتب القديمة) والثاني: (حياة محمد لاميل درمنجم).

أما كتاب جيل لوميتر فإني بعد أن شغفت به كثيراً وضعت في نفسي الأسئلة الآتية:

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية في تاريخ الإسلام في أسلوب جديد أم أنه يتعذر ذلك؟ وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر؟

وقال عن كتاب (على هامش السيرة):

هذا الكتاب من عمل المخيلة. اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت

نفسي حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث وأخترع الإطار الذي يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة مع الاحتفاظ بالطابع القديم.

وكان الدكتور طه يتحدث بهذا إلى المستشرقين في أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام ويعد كتابه هذا خطوة في هذا السبيل من حيث دمج الأديان كلها في كتاب واحد وفي اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير في الأدب العربي. هذا ما كشف عنه طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور (على هامش السيرة) فماذا كان موقف الباحثين منه؟ يقول صديقه وزميل دربه الدكتور محمد حسين هيكل:

أستميح طه العذر إن خالفته في اتخاذ النبي ﷺ وعصره مادة لأدب الأسطورة. وأشار إلى ما يتصل بسيرة ﷺ ساعة مولده وما روي عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبي ثم قال:

ولهذا وما إليه يجب في رأيي ألا تتخذ حياة النبي ﷺ مادة الأدب الأسطوري، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب، وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر، وما لا يترك صدقة أو كذبة في حياة النفوس والعقائد أثراً ما والنبي ﷺ وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي فلذة من هذه الحيا. ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً. وأعلم أن هذه (الإسرائيليات) قد أريد بها إقامة ميثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب. ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ﷺ فقد كانت هذه غاية الأساطير الذي وضعت عن الأديان الأخرى. من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام.

ولا ريب أن كلام الدكتور محمد حسين هيكل هذا هو اتهام صريح لطه حسين في اتجاهه وتحميله مسؤولية من أخطر المسؤوليات، وهي:

إعادة إضافة الأساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة النبي ﷺ منها طوال العصور. وإعادتها مرة أخرى لخلق جو معين يؤدي إلى إفساد العقول في سواد الشعب وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ﷺ.

وهذا الذي كشفه هيكل ما زال كثيرون يجهلونه، وما زال المتابعون لحياة الدكتور طه حسين وتحولاته يرون أن هذا أخطر تحول له وأن هذا التحول جاء ليخدع الناس عن ماضيه وسابقته في إذاعة مذهب الشك وطارت الدعوات تقول: إن طه حسين عاد إلى الإسلام وإنه يكتب حياة الرسول، ولم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق ولكنه كان تحولاً خطيراً وفق أسلوب جديد لضرب الإسلام في أعز فلذات حياته وهي سيرة الرسول الأمين ﷺ ولقد دمغه

هيكل حين قال: لقد تحول طه الرجل الذي لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على إحيائها وإن هذا ليثير كثيراً من التساؤل، إذ إن طه وقد فشل في تثبيت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمي لجأ إلى الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب إظهاراً لما فيها من أوهام في ظاهرها تفتن الناس.

وقد كان هذا مصدراً لما أورده الأستاذ محمد النايف في كتابه دراسات عن السيرة حيث قال: إن (على هامش السيرة) هو في حقيقته على هامش الشعر الجاهلي ومتمم له. فهو على طريق تطاوله على الإسلام ولكن مع المرواغة والمداهنة.

ومن أبرز ما يلاحظ أنه خلط تاريخ الإسلام بأساطير المسيحية واليهودية وقساوسة مصر والشام وخيبر ونصارى اليمن، كما عنى عناية كبيرة بأساطير اليونان والرومان، وخلط هذا كله خلطاً شديداً مع سيرة النبي وأراد بذلك إثارة جو من الاضطراب بين الإسلام المتميز بذاتيته الخاصة وبين ما كان قبل الإسلام من أساطير وخرافات وقد اهتم بتراث اليهود فقدم لهم قصة (مخيرق) اليهودي...

وقد أخذ في كتابه بالأحاديث الموضوعة وفي نفس الوقت رد أحاديث صحيحة لأنها خالفت هواه، وعوَّل كثيراً على الإسرائيليات التي جاءت في تاريخ الطبري وأكثر من إيرادها وحشد قدراً كبيراً من الأساطير في قصة (حفر زمزم) على يد عبد المطلب، وبالغ في قصة ولادة الرسول ﷺ مع أنه لم يثبت منها إلاّ حديث واحد وأخذ بالأخبار الموضوعة في قصة (زينب بنت جحش) وجسم بعض المعجزات التي حدثت للرسول ﷺ عند مرضعته حليمة السعدية وأثناء سفر النبي في تجارة خديجة رضي الله عنها. وقد خص الشياطين باهتمام بالغ فتوسع في الحديث عنهم وصور مؤتمراً يتصدره إبليس للشياطين ورسم صورة للشيطان الذي حضر خلاف قريش على الحجر الأسود وكان على شكل شيخ نجدي.

وعلى ندرة الصفحات التي خصصها لسيرة الرسول ﷺ - جاءت هذه الصفحات - مملوءة بالمغالطات والذي سلم من التحريف كان للمتعة والتسلية. ومن أخطر مزاعمه أن النبي قد أحبَّ زينب وهي زوجة لزيد وهذا بهتان عظيم.

وإذا كان طه حسين قد أشار في المقدمة إلى أنه اهتم باختراع الأحاديث فإنَّ الحرية التي أباحها لنفسه لم تكن إلا لهوى معين وهدف واضح هو أن يقدم عن طريق القصص من السموم ما عجز عنه عن طريق النقد والكتابة الأدبية.

يقول (غازي التوبة) في دراسته عن طه حسين وهامش السيرة:

إنَّ طه حسين ينصب نفسه إماماً للأساطير اليونانية ويضع السيرة في مصاف الإلياذة

ويطلب من المؤلفين والكتاب أنْ يفتنوا في الحديث عنها افتنان أوروبا بأساطير اليونان كي يرضوا ميول الناس إلى السذاجة ويمتعوا عواطفهم وأخيلتهم. ولكن هل يتساوى الأثران في المجتمعين (الإلياذة في المجتمع اليوناني والسيرة في المجتمع الإسلامي؟ وهل كانت السيرة يوماً في التاريخ موضوعاً لتسلية قصصية أو مباراة لفظية؟).

ولم تكن السيرة يوماً من الأيام وسيلةً للتسلية والترفيه كما يهدف طه حسين ولكنها كانت مصدراً لابتعاث الهمم ودفع النفوس المؤمنة إلى النهوض بالمجتمعات في ضوء حياة النبي وسننه.

ولقد تحدث كثيرون عن الشبهات الواردة في (على هامش السيرة) ووصفها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بأنها «تهكم صريح» وقالت صحيفة الشهاب الجزائرية (ذو القعدة ١٣٥٢) الموافق ١٩٣٤ تحت عنوان: دسائس طه حسين: ألف كتاباً أسماه على هامش السيرة (يعني السيرة النبوية الطاهرة) فملأه من الأساطير اليونانية الوثنية وكتب ما كتب في السيرة الكريمة على منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال حتى يخيل للقارئ أنَّ سيرة النبي ﷺ ما هي إلا أسطورة من الأساطير وفي هذا من الدس والبهت ما فيه. والدكتور طه الذي كان يقول في الإسلام ما شاء ولا يبالي بالمسلمين أصبح اليوم يحسب للمسلمين حساباً فلا يكتب إلا ويقول: إنه مسلم وإنه يعظم الإسلام ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى إلا الظهور كما بدا جلياً في كتابه هذا (على هامش السيرة).

وقال الدكتور زكي مبارك (البلاغ ـ يناير ١٩٣٤): وأنا أوصي قرائي أن يقرأوا هذا الكتاب (على هامش السيرة) بروية فإن فيه نواحي مستورة من حرية العقل عرف الدكتور كيف يكتمها على الناس بعد أن راضته الأيام على إيثار الرمز على التأليف (بعد ضربة الشعر الجاهلي) آثر أسلوب الرمز لتغطية أهدافه.

وقال الدكتور هيكل في دراسة لهامش السيرة الجزء الثاني (ملحق السياسة ١٢/٢٥/ ٣٧): إن اليهود لهم باع طويل في دس الإسرائيليات في الإسلام.

والحق أنني كنت أشعر أثناء قراءتي هذا الجزء الثاني من هامش السيرة وكأنما أقرأ في كتاب من كتب الأساطير اليونانية وليس فصل (نادي الشياطين) بأشد إمعاناً في أدب الأسطورة من سائر فصول الكتاب وقد عرف تبعية الدكتور طه حسين لمفهوم الإسرائيليات ووجهة نظر اليهود في قضايا كثيرة مثل موقفه من عبد الله بن سبأ في كتاب الفتنة الكبرى.

خامساً: الفوارق العميقة بين النبوة والعبقرية:

إن التفرقة بين (النبوة) و (العبقرية) هي من أخطر ما تعرضت له كتابات العصريين للسيرة

الأخطار التي هددت الفرد والعظمة وجعلته يستل قلمه سنة ١٩٤٢ ليكتب أول عبقرية من عبقرياته؟ في الحقيقة أن الأخطار المباشرة التي هددت الوجه الآخر من إيمان العقاد بالفرد هي النظام الديمقراطي. هددته ثلاثة أخطار هي الفاشية والشيوعية والمد الإسلامي. تصدى للفاشية في (هتلر في الميزان) وتصدى للشيوعية في كتابيه (الشيوعية والإنسانية) و (أفيون الشعوب). أما تيار المد الإسلامي فحاربه بسلاح الشخصيات فكتب العبقريات ليؤكد صحة أفكاره في أولية الفرد في التاريخ وأحقيته كمحرك له وليطعن ويشوه الإيمان بالجانب الجماعي في الإسلام ويشكك في دور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص، فالعظيم عظيم بفطرته والعبقري عبقري منذ نشأته، كذلك فقد ركز العقاد على العوامل الوراثية والتكوين الجسماني والعصبي، ووضع هذه الأسباب في المرتبة الأولى في توجيه الشخصية بحيث تأتي العقيدة الإسلامية والتربية في المرتبة الثانية إن كان هناك دور للعقيدة أو التربية.

والعقاد في موقفه هذا متأثر ببعض المدارس الأوروبية التي تقدس الفرد والفردية وتفسر مختلف حوادث التاريخ على هذين الأساسين، وقد أورد العقاد ذكراً لإحدى هذه المدارس التي تحدد صفات العبقري انطلاقاً من تكوينه الجسدي وهي مدرسة (لومبروزو).

وهكذا قَوْلب العقاد الشخصيات الإسلامية ضمن نظرياته الجاهزة في الفرد والطوابع الفردية. وهو في هذا قد حجب الجانب الرباني المعجز، وحجب الغيبيات.

فهو في موقفه من انتصار الرسول ﷺ في غزواته لا يعرض مطلقاً لوعد الله تبارك وتعالى لرسوله ورعايته والملائكة المقاتلين والنعاس الذي تغشى المسلمين أمنةً والمطر الذي طهرهم والرياح التي اقتعلت خيام المشركين وتثبيته لأفئدة المقاتلين وقذفه الرعب في قلوب الكافرين، فليست العوامل المادية هي قوام مكانة الرسول العسكرية ولكن العوامل الربانية يجب أن تضاف إلى ملكات الرسول في التخطيط.

كذلك فهو لم يكشف عن دور الإسلام في بناء شخصية الرسول، فالإسلام هو الذي أعطى النبي ﷺ ذلك الإيمان بالله تبارك وتعالى والإيمان بأحقية الموت في سبيل الله وذلك القدر من الثبات والتضحية والإقدام والعزم والصبر.

هذا الجانب الذي تجاهله العقاد واكتفى بالمقارنة بين سيدنا محمد ﷺ وبين نابليون في النواحي المادية والعسكرية. كذلك لم يتبين الفارق بين حروب محمد ﷺ وبين حروب نابليون وأنها كانت خالصة في سبيل الله ونشر الإسلام وليست في سبيل المطامع والسيطرة.

ذلك أنه ناقش عبقرية الرسول العسكرية في ضوء العبقريات البشرية، ولم يتنبه للفوارق

العميقة التي تتميز بها شخصية الرسول بوصفه نبياً مرسلاً أو تلك التي هداه إليها الإسلام، وأن تميزه هذا يختلف عن البطولات والعبقريات البشرية الأخرى.

ومن هنا يبدو النقص في وزن النبي ﷺ بالعبقريات البشرية الأخرى.

كذلك فإن هذا التميز الذي عرفت به شخصية محمد ﷺ «نبياً ومرسلاً وهادياً». تختلف في المقارنة بينه وبين الأبطال العالميين الآخرين من ناحية كما أنَّ شخصيته تختلف بينه وبين أبي بكر وعمر وغيرهم.

لقد تحدث العقاد عن الجانب المادي في شخصية الرسول وحجب تماماً الجانب الروحي المتصل بالوحي وأظهره كمجرد إنسان يعمل بمواهب ممتازة وملكات خاصة وهكذا فإن (العبقرية) التي حاول العقاد أن يقدم رسول الله ﷺ من خلالها، كان حجمها ضيقاً ومجالها ناقصاً، وأخطر ما أخذ عليه هو أنه لم يظهر أثر الإسلام في بناء شخصية الرسول وهو العامل الأكبر في حياته وتصرفاته على النحو الذي وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها (كان خلقه القرآن) هذه الربانية الخالصة التي تعلو على طوابع البشر. وقد وصفها القرآن في قوله تعالى:

﴿قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له﴾.

كذلك فقد تحدث عن افتتان المسلمين بشخص الرسول وانبهارهم بمواهبه واعتبر إعجابهم به سبباً وحيداً لدخولهم في الإسلام وعزا اجتماع الصداقات المتنوعة حوله بأنه كان نتيجة لمزاياه النفسية، وبذلك أنكر أثر عظمة الإسلام نفسه في إيمان أصحاب النبي، وليس من شك أنَّ إعجاب المسلمين بالرسول له أهميته في مرحلة الدخول في الإسلام ولكن تقدير المسلمين للإسلام هو العامل الذي ثبتهم بعد ذلك على الإيمان بالإسلام وحفزهم للدفاع عنه.

إنَّ الأستاذ العقاد وقد حارب مذهب التفسير المادي للتاريخ الذي قدمه ماركس والشيوعية حرباً لا هوادة لها خضع مع الأسف للمذهب النفسي المادي الذي لا يعترف بالآثار المعنوية المترتبة على الإيمان والعقيدة في بناء الشخصية كما تجاهل جانب الغيبيات ولم يفهم النبوة فهماً صحيحاً، ولذلك فإنَّ الجانب الروحي القادر على العطاء في بناء الشخصيات والذي صنع شخصية رسول الإسلام تراه باهتاً غائماً عنده، وذلك لأنه اعتمد في دراسة الشخصيات والبطولات على مذاهب غربية تتجاهل النبوة والوحي والغيبيات والمعجزات، ولا تجعل هذه العوامل الروحية والمعنوية أي وزن وأي اعتبار وإنما قامت على جوانب الحس وتركيب الإنسان المادي والوراثيات وغيرها.

سادساً: تطور جديد: التفسير الماركسي للسيرة:

ثم جاء بعد ذلك تطور جديد في كتابة السيرة العصرية، وهو إخضاعها للتفسير الماركسي على النحو الذي كتبه عبد الرحمن الشرقاوي تحت اسم (محمد رسول الحرية).

وقد قال الشيخ محمد أبو زهرة في توصيف هذا العمل: إن الكتاب كان له اتجاه غير ديني في دراسته فهو ما درس محمداً ﷺ على أنه رسول يوحى إليه بل على أنه رجل عظيم له آراء اجتماعية فسرها الكاتب على ما يريد، وقد تبين أَنَّ الكاتب يقطع النبي ﷺ عن الوحي فكل ما كان من النبي من مبادئ وجهاد في سبيله إنما هي من عنده لا بوحي من الله تعالى. وهي بمقتضى بشريته لا بمقتضى رسالته والعنوان (إنما أنا بشر مثلكم) يعلن أن ما وصل إليه النبي ﷺ من مبادئ جاهد من أجلها إنما هو صادر عن بشرية كاملة لا عن نبوة، وقد اقتطع هذه الجملة مما قبلها وما بعدها ونصها الصحيح **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد﴾** وهو بهذا الاقتطاع ينفي الوحي عن الحياة المحمدية.

كذلك فهو ينفي الخطاب السماوي للرسول ولا يذكر أَنَّ جبريل خاطب النبي ﷺ في العيان. وتصويره للوحي بأنّه حلم في النوم يخالف ما أجمع عليه المسلمون من أَنَّ جبريل كان يخاطب النبي ﷺ بالعيان لا في المنام، الأمر الذي تردد ذكره في القرآن على أنه رسول الله إلى الذين يصطفيهم من الأنبياء ليبلغ الرسالة الإلٰهية لأهل الأرض. كذلك فهو يقطع الرسالة عن الرسول ويقطع الوحي عنه ويتجه إلى القرآن فيذكر عباراته أحياناً منسوبة إلى النبي ﷺ على أنها من تفكيره ومن قوله لا أنها قرآن موحى بها وقائله هو الله سبحانه وأَنَّ ذلك مبثوث في الكتاب بكثرة وهو ينسب بعض آي القرآن إلى النبي، وكذلك ينسب إبطال التبني إلى النبي ولا ينسبه إلى الله تبارك وتعالى، وكذلك ينسب تحريم الخمر إلى النبي، كما أنه يذكر قصص القرآن على أنه نتيجة تجارب النبي ﷺ وما كانت قصص النبي إلا من القرآن وما كانت له رحلات في بلاد العرب بل إنه لم يخرج من الحجاز إلا مرتين إحداهما في الثانية عشرة والثانية في الخامسة والعشرين. ويرى الكاتب أَنَّ القرآن من كلام محمد ولم يذكر قط على وجه التصريح أَنَّ الله تبارك وتعالى هو منزل القرآن وباعث محمد بالرسالة بل إنَّ ذكر الله تبارك وتعالى يندر في الكتاب بل لا تجد له ذكراً قط ولم يذكر القرآن إلا نادراً بل لا تكاد تجد له ذكراً قط، وإذا ذكر آية ذكر أنها همهمة نفس النبي ﷺ وهو لا يذكر كلمة القرآن على أنه منسوب لله، في مقام يومئ بالتشكيك في صدقه ويوهم بأَنَّ به تحريفاً وتبديلاً ومحاولة التقاط من واحد ممن كانوا يشتركون مع العشرات في كتابة الوحي لإثارة هذه الشبهة.

ولقد كان هذا التطور في كتابة السيرة نتيجة للأدوار التي مرت بها على أيدي السابقين.

سقوط المدرسة المادية في السيرة:

قامت هذه المدرسة على إنكار الغيب والمعجزات في آن وإنكار الوحي والنبوة في آن آخر، وحاولت أن تفسر الإسلام وسيرة الرسول تفسيراً مادياً وجرت في خضوع منكسر وراء العقلية الأوروبية وتحت لواء ما زعموه من المنهج العلمي الحديث، وكانت هذه المدرسة رد فعل أثاره الانبهار والشعور بالضعف لدى طائفة من المسلمين ترى أن تتابع الأوروبيين في فهم الدين والعقيدة.

ولكن سرعان ما تكشفت هذه النزعة وسقطت وجهتها، وبرزت كتابات مدرسة الأصالة التي أنكرت هذا الأسلوب الفلسفي المادي، وأقامت مفاهيمها على الأساس القرآني الأصيل. وظهرت تلك الكتابات بأقلام حسن البنا ومحمد الغزالي وسعيد رمضان البوطي وأبو الحسن الندوي وكثيرون غيرهم فردت إلى السيرة النبوية وأعادت تقدير جانب معجزة الوحي الإلٰهي والغيبيات والمعجزات.

وقد جاءت كتابات مدرسة الأصالة في السيرة النبوية مصححة لأغلاط كثيرين ممن كتبوا عن السيرة في هذا العصر وأماطت اللثام عن المغالطات التي كانت ولا تزال تدسها أقلام كثير من المستشرقين والتغريبيين وهي أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها وترويجها مدرسة التبعية.

إنَّ هذه المدرسة لم تعد تخدم إلا قلة من بقايا المفتونين باسمها وإنَّ الحقائق الناصعة في حياة النبي ﷺ ستظل هي المشرقة والسائدة.

وليس أدل على ذلك من هذه المؤتمرات للسيرة التي حشدت عشرات من الأعلام للكشف عن الجوانب المختلفة في حياة هذا النبي الكريم الذي هدى البشرية إلى طريقها وأخرجها من الظلمات إلى النور.

حال العالم في القرن العاشر الهجري

يمتد القرن العاشر الهجري من سنة ١٤٩٦م إلى سنة ١٥٩١م، وكانت الدولة العثمانية التركية أقوى دولة إسلامية فيه، وكان على رأسها في أوله السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح، وكان ملكاً محباً للسلم، فوقفت هذه الدولة في عهده عند فتوح أبيه، وقد خرج عليه ابنه سليم الأول، فانضمَّ إليه جيش الانكشارية، فترك له الحكم سنة ٩١٨هـ = ١٥١٢م، فقام السلطان سليم بعد أبيه بالحكم، وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوته وأبنائهم إلى أن قضى عليهم، ثم توجه إلى قتال الشاه إسماعيل مؤسس الدول الصفوية بفارس، وكان

شيعيًا علويًا ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب، فحاربه السلطان سليم واستوى على مدينة تبريز قاعدة ملكه، وانتزع منه العراق وما إليه من البلاد، ثم توجه بعد هذا إلى قتال المماليك بمصر، فحاربهم حتى أسقط دولتهم سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م، وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء بني العباس بمصر، وبهذا صار ملوك الدولة العثمانية التركية خلفاء المسلمين بعد أن كانوا ملوكاً على دولتهم فقط، وفاتهم أن الخلافة الإسلامية لا تنعقد بهذا الشكل، وإنما تنعقد بالشورى ومبايعة المسلمين باختيارهم، ثم توفي السلطان سليم سنة ٩٢٦هـ = ١٥٢٠م، فخلفه ابنه السلطان سليمان الأول القانوني، وفي عهده وصلت هذه الدولة إلى نهاية عظمتها، فاستولت على بلاد الصرب والمجر، ووصلت فتوحاتها إلى فينًا قاعدة النمسا، واستولت على الجزائر وغيرها من بلاد المغرب وقد انتهت باستيلائها على تلمسان دولة بني زيان سنة ٩٥٢هـ = ١٥٤٥م، واستولت على اليمن وغيره من بلاد العرب، وكان لهذا السلطان إصلاحات دينية ومدنية عديدة، ثم توفي سنة ٩٧٤ = ١٥٦٦م، فخلفه ابنه سليم الثاني، وكان ضعيفاً لا يتحلى بالصفات التي تمكنه من إدارة هذه المملكة الواسعة، ولكنه كان له وزير عظيم هو محمد باشا الصقلي، فاعتمد عليه في تدبير أمور هذه الدولة، وإليه يرجع الفضل في المحافظة عليها في عهده، وقد تم في عهده الاستيلاء على مدينة تونس من بلاد المغرب، فانتهت بهذا الدولة الحفصية سنة ٩٨١هـ = ١٥٧٣م، وتوثقت العلاقة في عهد هذا السلطان بين فرنسا والدولة العثمانية التركية، حتى أباح لفرنسا أن ترسل بعوثاً دينية إلى البلاد الإسلامية، فأرسلت إليها كثيراً من هذه البعوث، مع أنها كانت تقصد تربية الطوائف المسيحية الموجودة بين المسلمين على الإخلاص لها، وسيكون لهذا من العواقب السيئة ما سيأتي بيانه في القرون الآتية، ثم توفي هذا السلطان سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٤، فخلفه ابنه مراد الثالث، وابتدأ حكمه بعادتهم السيئة، فقتل إخوته لئلا ينازعوه في الملك، ثم أعلن تحريم شرب الخمر، وكان قد شاع في عهد أبيه، وأفرط فيه الانكشارية، فثاروا عليه واضطروه إلى إباحته بالمقدار الذي لا يسكر، وفي عهده كانت علاقة الدولة حسنة مع فرنسا والبندقية وانجلترا، وقد حصلت هذه الدول على كثير من الامتيازات التجارية في بلاد الدولة سبب هذه العلاقة وسيكون لهذه الامتيازات أثرها السيّىء في القرون الآتية، وقد وقعت في عهد هذا السلطان حروب كثيرة بينه وبين الدولة الصفوية، فازدادت بها العلاقة سوءاً بينهما، وكانت أولى بحسن العلاقة من الدول الأوروبية السابقة، وفي عهده أعلنت الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا العصيان على الدولة، وأمكنها بمساعدة ملك النمسا وألمانيا الاستيلاء على مدن كثيرة من هذه البلاد، وكانت وفاة هذا السلطان سنة ١٠٠٣هـ = ١٥٩٤م.

وكان للمسلمين في هذا القرن دولتان شرقيتان غير الدولة العثمانية التركية: أولاهما:

الدولة الصفوية ببلاد فارس، وقد أنشأها الشاه إسماعيل ابن الشيخ صفي الدين العلوي الحسني سنة ٩٠٦هـ = ١٥٠٠م، واتخذ مدينة تبريز قاعدة له، وقد اتسعت بعد هذا حتى شملت جميع بلاد فارس والعراق العربي وديار بكر، وامتدت من الخليج الفارسي إلى بحر الخزر، وكانت العلاقة سيئة بينها وبين الدولة العثمانية التركية طول هذا القرن، ومن أهم أسباب هذا العداء أن الدولة الصفوية كانت شيعية، والدولة العثمانية التركية كانت سنية.

والثانية: الدولة المغولية ببلاد الهند، وقد أنشأها بابر شاه من نسل تيمور لنك سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥م، وكانت وفاته سنة ٩٣٧هـ = ١٥٣٠م، فخلفه ابنه همايون، وقد استمر حكمه إلى سنة ٩٦٤هـ = ١٥٥٦م، فخلفه ابنه أكبرخان إلى سنة ١٠١٤هـ = ١٦٠٥م، وكان لأكبرخان أفكار جريئة في التجديد خرج في بعضها عن دائرة التجديد الإسلامي، وسنذكرها في موضعها من هذا القرن.

أما المغرب فقد ظهر ضعفه في هذا القرن، وكادت بلاده تسقط في يد الأسبانيين والبرتغاليين، وقد ذهبت فيه دولة بني حفص ودولة بني زيان باستيلاء الدولة العثمانية التركية على تونس والجزائر، وسقطت فيه بمراكش دولة بني وطاس سنة ٩٥٦هـ = ١٥٤٩م، وقامت دولة السعديين الحسنية العلوية مكانها، ولكنها لم تكن من القوة بحيث يمكنها دفع عدوان أوروبا على المسلمين من هذه الناحية، وقد خرج على سلطانها بعض أهلها، واستعانوا عليه بالبرتغاليين، فلم يَقْوَ وحده على حربهم، واستنجد بالدولة العثمانية التركية، فأمرت واليها بطرابلس أن يرسل إليه مدداً من جنوده، فأرسل إليه مدداً منها، وكان هذا سنة ٩٨٦هـ = ١٥٧٨م، فتمكن بهذا المدد من الانتصار على الثائرين ومن ساعدهم من البرتغاليين. وقد رجع هذا المدد إلى طرابلس بعد انتصاره عليهم، وترك مراكش وحدها تُعاني ما تعاني من طمع أوروبا فيها.

وبهذا يمكننا أن نحكم بأن المسلمين في هذا القرن كانوا على شيء من القوة، إذ كانت الدولة العثمانية التركية فيه لا تزال مرهوبة الجانب عند أمم أوروبا، ولكن الحالة العلمية بين المسلمين في هذا القرن لم تكن مضاهية لقوتهم، فقد فشا الجهل فيهم إلى الحد الذي سيأتي في شكاية بعضهم؛ وكانوا في القرون السابقة يعادون العلوم الفلسفية وحدها؛ فأضافوا إليها في هذا القرن معاداة العلوم الأدبية؛ لأن العامية أخذت تطغى عليهم بعد استيلاء الدولة العثمانية التركية على معظم البلاد العربية؛ وجعلها اللغة التركية هي اللغة الديوانية؛ وممن شكا من معاداة العلوم الأدبية في هذا القرن صاحب كتاب ـ العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ـ وكان معاصراً للسلطان سليمان القانوني؛ فقال مشيراً إلى موضوع كتابه في التاريخ: ولعمري إن ذلك

يعد عند الأكثرين من تضييع الأوقات؛ لأن المعارف عندهم خرافات؛ فإنا قد انتهينا إلى زمان يرون الأدب عيباً، ويعدُّون التضلع من الفنون ذنباً؛ وإلى الله الحنَّان المشتكي من هذا الزمان، قد سلَّ سيف بغيه وعدوانه، على من تحلى بالفضائل وتقدم على أقرانه، وأوفق نَبله لكل ذي نُبل ظاهر وشرف باهر، فالتبس الدر بالزجاج، واشتبه العذب بالأجاج، وضاع أرباب الألباب كالذباب في الضباب؛ فصارت المعارف طيف خيال، أو ضيفاً على شرف ارتحال، وضعف أساس العلم وبنيانه، وتضعضعت أركانه، وخمدت ناره، وكادت أن تمحى آثاره:

وكان سرير العلم صريحاً ممَّرداً ... يناغي القباب السبع وهيَ عظام
متيناً رفيعاً لا يطار غرابه ... عزيزاً منيعاً لا يكاد يرام
يلوح سنا برق الهدى من بروجه ... كبرق بدا بين السحاب يشام
فجرَّت عليها الرامسات ذيولها ... فخرت عروش منه ثم دعام
محا الذارياتُ اليوم آياتِ حسنه ... فلم يبق منه آية ووسام

وممن شكا حال العلوم الفلسفية في هذا القرن الحكيم داود الأنطاكي صاحب التذكرة في الطب، وكان قد نزل بمصر فقال فيها: ثم لم ألبث أن هبطت مصر هبوط آدم من الجنة، لما وجدتها كما قال أبو الطيب ملاعبِ جنة، فكأنها مغاني الشِّعب، وأنا المعنيُّ فيها بقوله:

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

تنبو عن قبول الحكمة فيها طباع الرجال، نبوَّ قيناتهم الحسان لحى شيب القذال، ثم تمثل:

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها اللـ ... ـه غريب كصالح في ثمود

وقد طعن أهل مصر في عقيدته لاشتغاله بعلوم الفلسفة؛ فلما كثر كلام الناس في اعتقاده ارتحل منها إلى مكة.

وبهذا ازداد العلم هواناً في هذا القرن أمام جهلة المتصوفة.

المؤلف والكتاب

اسمه وكنيته

وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الصالحي الشامي.

قال الشعراني في ذيل طبقاته.

● «كان عالماً صالحاً مفنّناً في العلوم، وألَف السيرة النبوية التي جمعها من ألف

كتاب، وأَقبل الناس على كتابتها، ومشى فيها على أنموذج لم يسبقه إليه أَحد. وكان عزباً لم يتزوج قط، وإذا قدم عليه الضيف يعلق القِدْر ويطبخ له. وكان حلو المنطق مهيب النَّظر كثير الصِّيام والقيام، بتُّ عنده الليالي فما كنت أَراه ينام إلاَّ قليلاً. وكان إذا مات أَحد من طلبة العلم وخلف أَولاداً قاصرين، وله وظائف، يذهب إلى القاضي ويتقرّر فيها ويباشرها ويعطي معلومها للأَيتام حتى يصلحوا للمباشرة. وكان لا يقبل من مال الولاة وأَعوانهم شيئاً، ولا يأْكل من طعامهم».

مصنفاته

لقد أثرى مصنفنا ـ رحمه الله تعالى ـ مكتبتنا الإسلامية بذخائر ونفائس التراث الإسلامي فنذكر منها ما يأتي:

- الآيات الباهرة في معراج سيد أهل الدنيا والآخرة.
- الإتحاف بتمييز ما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف.
- إتحاف الراغب الولي في ترجمة الأوزاعي.
- إتحاف الأريب بخلاصة الأعاريب.
- تفضيل الاستفادة من بيان كلمتي الشهادة.
- الجامع الوجيز الخادم للغات القرآن العزيز.
- الجواهر النفائس في تحبير كتاب العرائس.
- رفع القدر ومجمع الفتوة في شرح الصدر وخاتم النبوة.
- سبل الهدى والرشاد في سير خير العباد .وهو الذي نحن بصدد تحقيقه.
- شرح الأجرومية.
- عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان.
- عين الإصابة في معرفة الصحابة.
- الفتح الرحماني في شرح أبيات الجرجاني في الكلام.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة.
- كشف اللبس في ردّ الشمس.
- مختصره المسمّى بالآيات البينات.
- مرشد السالك إلى ألفية ابن مالك.

- النكت على الألفية.
- النكت المهمات من الكلام على الأبناء والبنين والبنات.
- وجوب فتح همزة «إن» وكسرها وجواز الأمرين.

وفاته

توفي المصنف رحمه الله سنة ٩٤٢هـ أسكنه الله تعالى فسيح جناته اللهم آمين ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كلمة شكر

ونحن إذ نقدم للمسلمين هذا العمل العلمي، الذي نعتقد أننا خدمنا به هذا الكتاب - يجب علينا الثناء والشكر والتقدير للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، إذ قام - أدامه الله خادماً للتراث الإسلامي - بتحقيق الأجزاء الأولى من هذا الكنز النفيس، وذلك من باب إحقاق الحق، ونسبة الفضل لذويه، إذ الأمر - كما قال نبينا ﷺ من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فقد أسهم إخراج هذه الأجزاء على الرغم من عملنا فيها ومقابلتها بمخطوطاتها المشار إليها أسهم عمل المجلس في إخراج الكتاب منقحاً صحيح النص.

وقد قمنا بإخراجه كاملاً خدمة لسيرة سيد الخلق ﷺ ونفعاً للأئمة المسلمين وطلاب العلم، ونسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا في ذلك.

وصف المخطوط

اعتمدنا في تحقيق كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام الصالحي على المخطوطات التالية:

الأولى: هي المحفوظة بمكتبة المتوكلية اليمنية بصنعاء تحت رقم ٢٠٧- ٢١٠ (تاريخ)، وهي تقع في أربعة أجزاء وهي نسخة كاملة للكتاب من أوله إلى آخره من أجل ذلك جعلناها أصلاً للكتاب ورمزنا لها بالرمز (أ).

الثانية: هي المحفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة والموجود منها الجزء الرابع فقط وهو الجزء الأخير من الكتاب. رمزنا لها بالرمز (ب).

الثالثة: هي المحفوظة بدار الكتب المصرية في مكتبة مصطفى فاضل تحت رقم (٥٠م - تاريخ) وهي تشتمل على الجزء الثالث والرابع وقد رمزنا لها بالرمز (جـ).

الرابعة: هي المحفوظة بدار الكتب المصرية بمكتبة التيمورية تحت رقم (٩٢٥) تاريخ.

الخامسة: هي المحفوظة بدار الكتب المصرية بمكتبة طلعت تحت رقم (٢١٠٠) تاريخ وتشتمل على المجلد الأول والثاني والثالث.

السادسة: هي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٠ تاريخ وتقع في أجزاء متفرقة.

السابعة: هي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥١١ وتقع في أجزاء متفرقة.

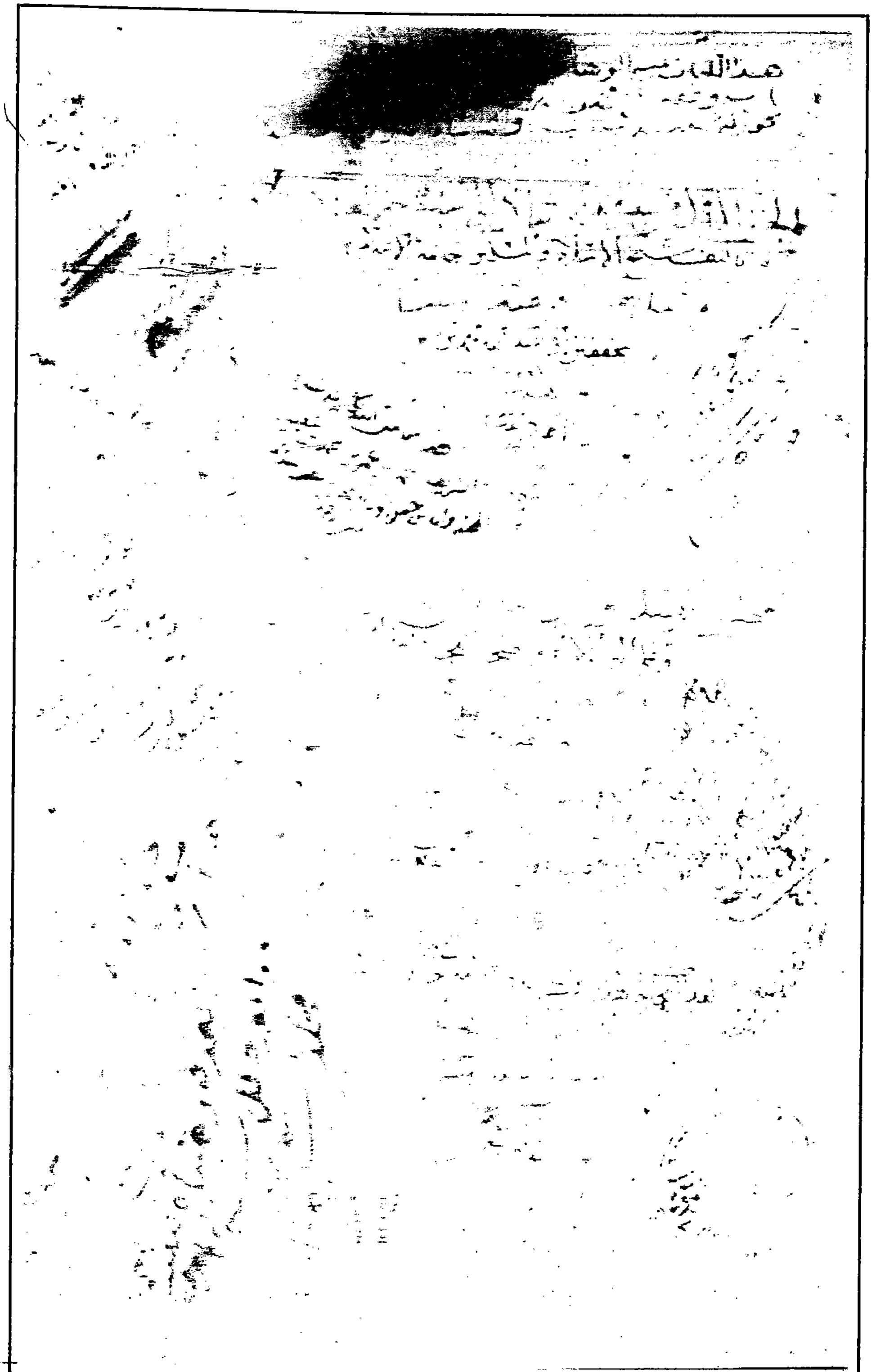
هذا، وقد وضع المؤلف في مقدمة كتابه فهرساً مشتمل على أبواب الكتاب غير أنه لم يلتزم بتتبع ما عنْوَن له في مقدمة كتابه لذلك وجد بمخطوطات الكتاب بياض كثير وقد بذلنا الوسع في سدّ كثير من هذا النقص واضعين له بين معكوفين هكذا[ ].

وقد كان من أشد العنت والعناء الذي لقيناه كذلك صعوبة الخط مما يخبره أهل فن التحقيق والعالمون به والبتر الكثير وعدم اتصال الكلام بعضه ببعض.

وقد قمنا بنسخ الكتاب ومقابلة النسخ غافلين ما بينها من فروق إلا ما ندر حرصين على سلامة النص بالرجوع إلى مصادر التاريخ والسيرة وقد قمنا بتخريج كثير من أحاديث الكتاب إلا ما تكرر منها في آخره فأغفلنا تخريجه لعزو المصنف له وسبق تخريجه، ولم يلتزم المصنف بما صح أو غيره من أحاديث السنة المشرفة فقط بل ذكر بعض الموضوعات في كتابه تبعاً في ذلك لابن السبكي والقاضي عياض وغيره دون توضيح وإشارة إلى وضعه إلا أن ذلك لا يقلل في قيمة الكتاب في جملته وما اشتمل عليه من موضوعات وأبواب جامعة لسيرة خير العباد ﷺ حتى عدّه بعض أهل العلم من موسوعات التخريج لأحاديث سنة النبي ﷺ وهو كذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

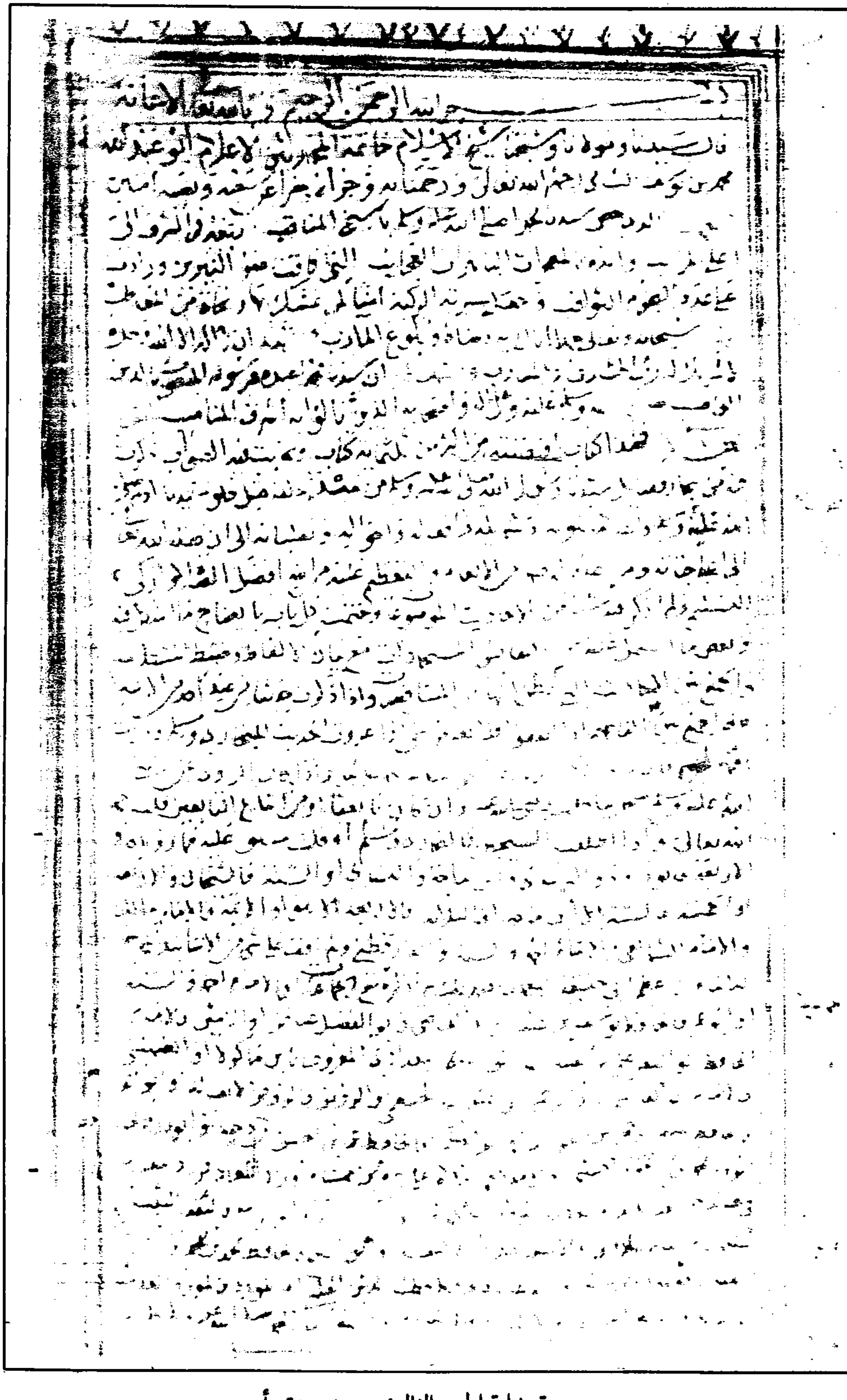
المحققان



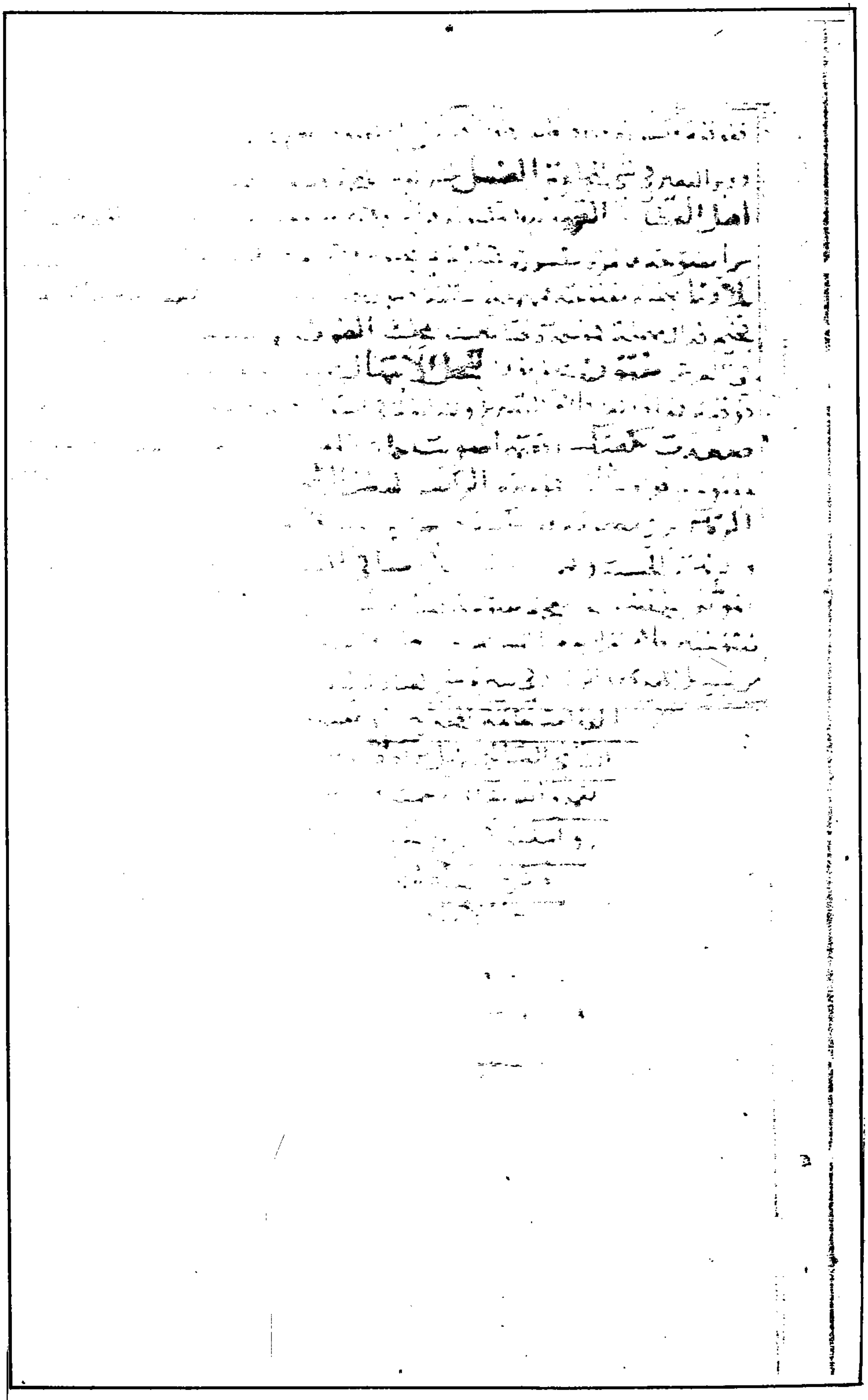
ـ صورة بداية الجزء الأول من نسخة «أ»



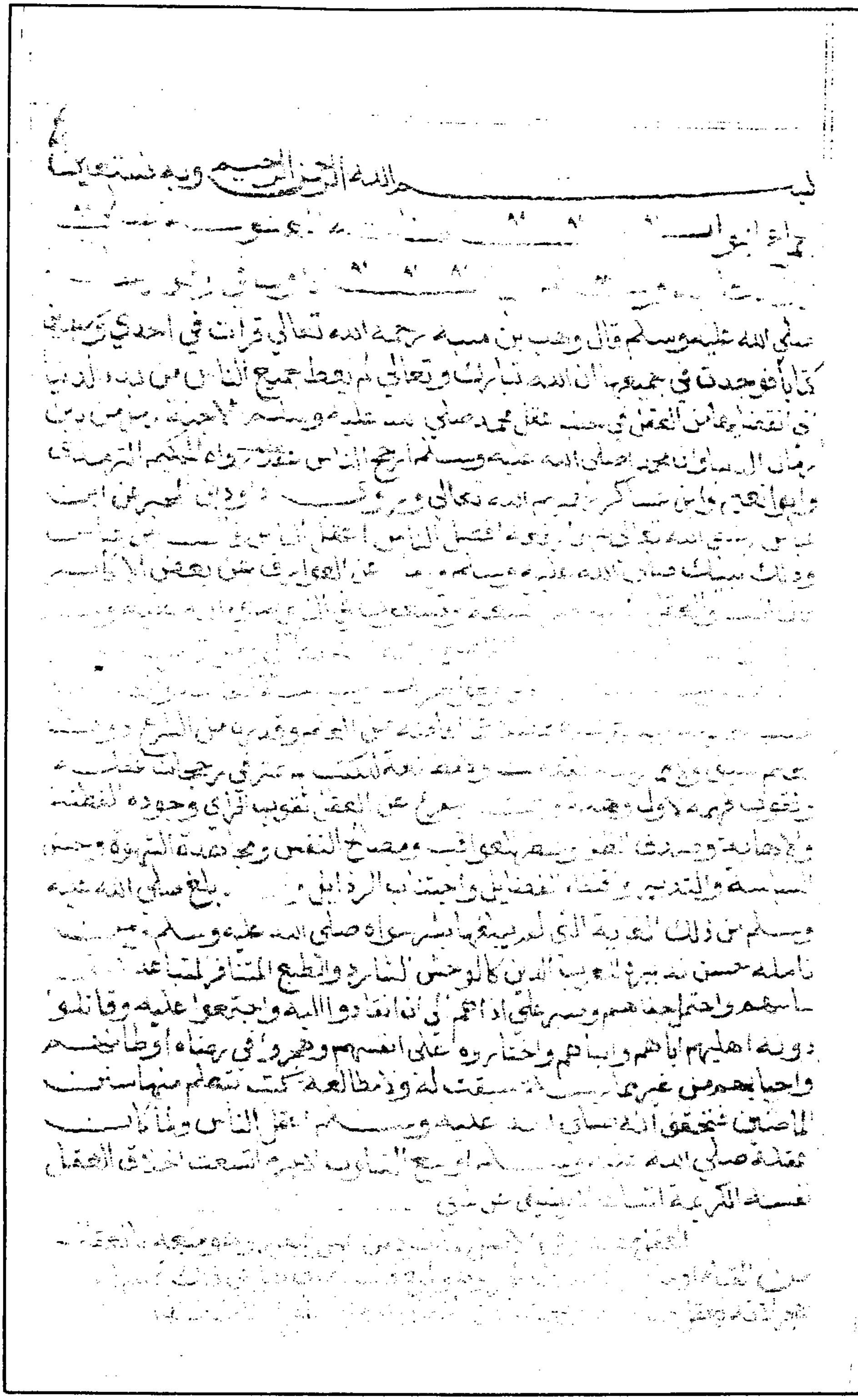
- صورة آخر الجزء الأول من نسخة «أ»



- صورة بداية الجزء الثالث من نسخة «أ»



ـ صورة آخر الجزء الثالث من نسخة «أ»



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

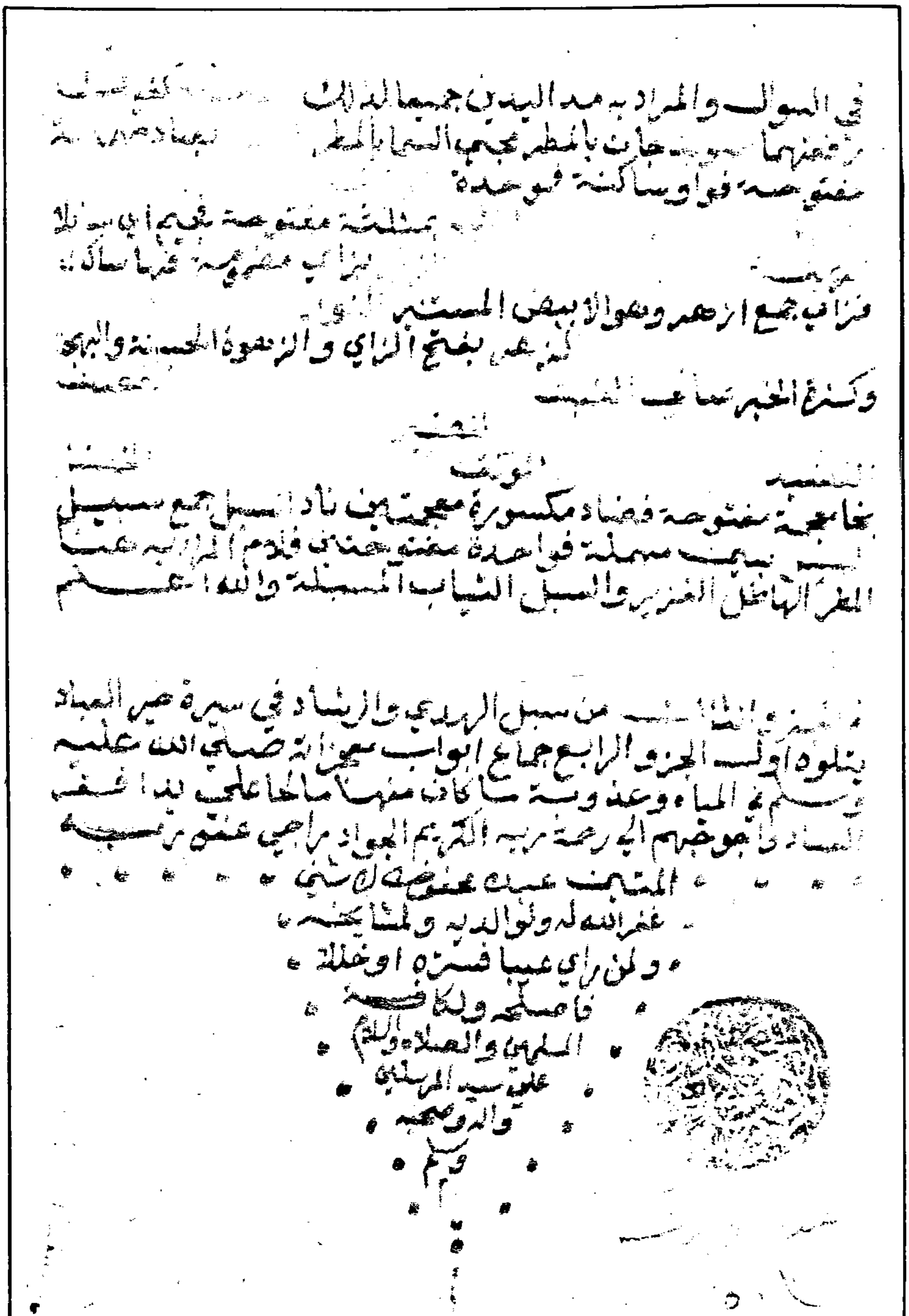
صلى الله عليه وسلم قال وهب بن منبه رحمه الله تعالى قرأت في احدى وسبعين

كتابا فوجدت في جميعها ان الله تبارك وتعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا

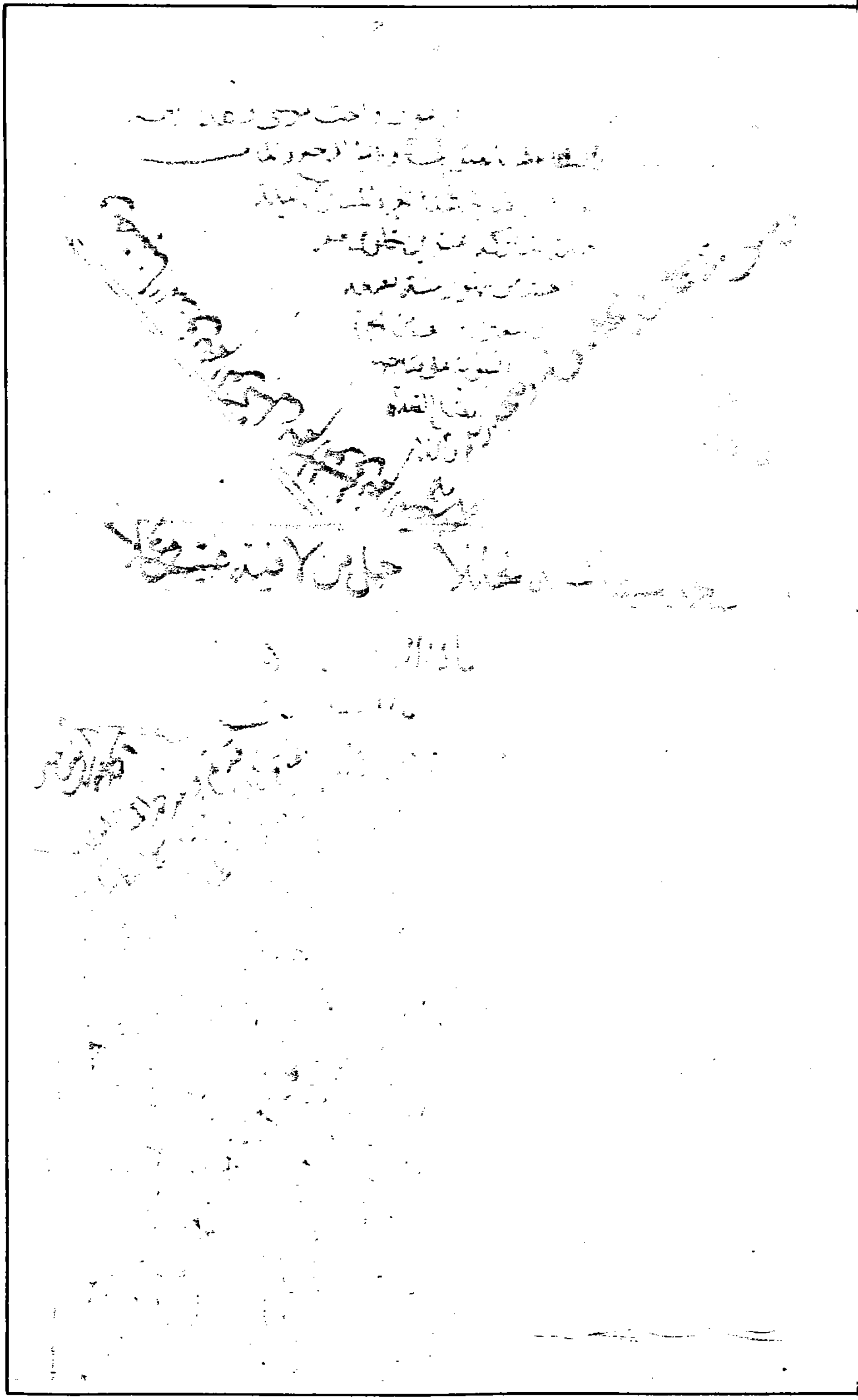
الى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم الا كحبة رمل من بين

رمال الدنيا وان محمدا صلى الله عليه وسلم ارجح الناس عقلا

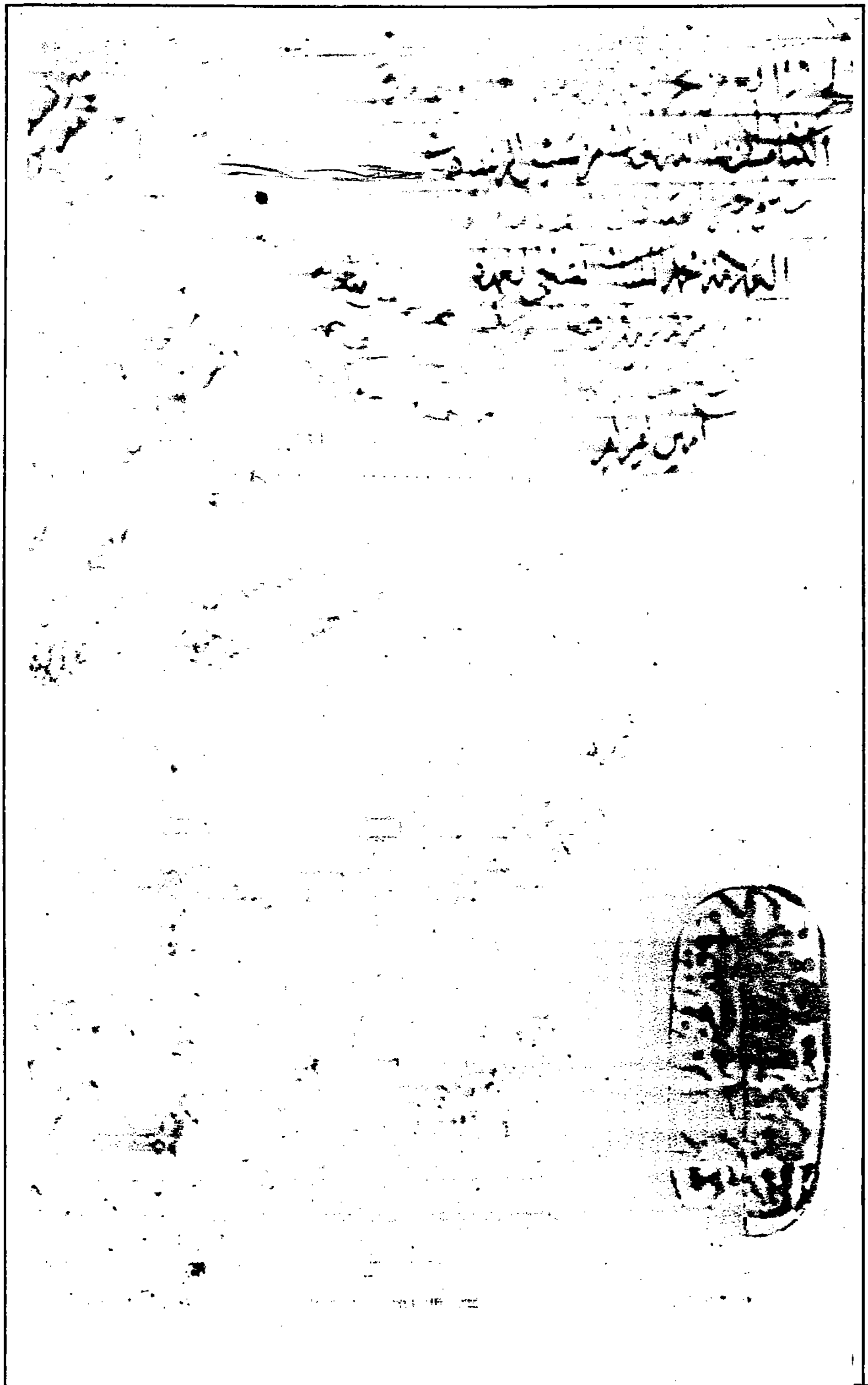
ـ صورة بداية الجزء الثالث من نسخة (ج)


من سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد
يتلوه أول الجزء الرابع جماع أبواب سيرته صلى الله عليه
وسلم
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه
ولمن رأى عيباً فستره أو خللاً
فأصلحه ولكافة
المسلمين والصلاة والسلام
على سيد المرسلين
وآله وصحبه
وسلم

- صورة آخر الجزء الثالث من نسخة «ج»



ـ صورة بداية الجزء الرابع من نسخة «أ»



ـ صورة آخر الجزء الرابع من نسخة «أ»

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] المياه

[illegible] الأولى

[illegible] أصابعه صلى الله عليه وسلم [illegible] الماء

[illegible] قال [illegible] أبو العباس القرطبي قصة نبع

[illegible] صلى الله عليه وسلم تكررت منه في عدة مواطن

[illegible] كما لا يعلم ... على القطع

[illegible] المعجزة العظيمة من غير

[illegible] عظم وعصب ولحم ودم

[illegible] نبع الماء من بين أصابع النبي

[illegible] الحجر حيث ضرب به موسى

[illegible] الماء من الحجارة معهودة

[illegible] قتادة وغيره عن أنس

[illegible] وحانت صلاة العصر والتمس

[illegible] صلى الله عليه وسلم بوضوء

[illegible] في ذلك الإناء يده [illegible]

[illegible] فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه

[illegible] قال قتادة قلت لأنس

[illegible] أخرى قال

[illegible] مع رسول الله صلى الله

[illegible] فيه ماء فأتي بماء [illegible]

[illegible] يخرج من بين

[illegible] الله [illegible] توضؤوا وشربوا

[illegible]

[illegible] قال الحسن البصري

[illegible] عليه وسلم خرج ذات يوم

[illegible] فحضرت الصلاة

[illegible] فأخذ ما توضأ به

[illegible] القوم [illegible]

[illegible] ... الله

- صورة بداية الجزء الرابع من نسخة (ج)



الدين احمد بن ــ شيخ الامام العالم العلامة المعمر المسند الشيخ
زين الدين عبد ا ــ ــ سنباطي الشافعي والشيخ الامام العلامة
الحافظ ابي عبد ا ــ ــ شيخ شمس الدين الداودي المالكي يوم وفاة
مؤلفه وامتناعه ــ ت لعلمي بعدم اهليتي لذلك وبعدم مراد مؤلفها
وقد رايته تلك ال ــ وحضني على ذلك فقوي العزم على ما اشا
به الشيخان لما ــ على وقفت ما رسمه الشيخ المولف عن بعض
تنابيه تركتها بيا ــ علم مراده بها وبعض بياضات لم يتيسر
سدها الان وار ــ ــ ـه تعالى ان طال الاجل ان يتيسرها وليعينا
على ذلك انه على ــ قدير ما شا الله كان وما لم يشا لم يكن ولا حول
ولا قوة الا بالله ا ــ لعظيم اعلم ان الله على كل شي قدير وانه قد
احاط بكل شي عـ ــ ــ ذ بالله من علم لا ينفع ومن دعا لا يسمع وقلب
لا يخشع وعين لا ــ ــ عوذ بالله من شر هولا الاربع وصلى الله
ــ ــ سيدنا محمد وعلى اله ..
ــ ـحبه وسلم تسليما ..
قال العلامة المذكو ــ ــ ـه تعالى وكان الفراغ منه في مسا يوم
الخميس خامس عـ ــ ــ ـثاني سنة احدى وسبعين وتسعمايه
ووافق الفراغ من ــ ــ ـخه في يوم الاثنين التاسع والعشرون من
ذي القعدة سنة ٩٨٤ ــ ـابيتين اربعة وثمانون من هجرة من له العز
والشرف صلى الله ــ ــ وسلم على يد الفقير الحقير المقر بالذنب والتقصير
وهبه بن محمد سالم ــ ــ ـه ولوالديه ولاخوانه من المسلمين والحمد لله
رب ا ــ ــ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ..
ــ وصحبه وسلم تسليما ..
ويا ايها الناظر اذا ا ــ ــ ـتن ابواب الصلاة على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وغيره ــ ــ ـة من الحواشي وغيرها عذرتني وشكرتني
على ذلك ودعوت لي ــ ــ ذا نظرتا اخي بعين الانصاف ايدك الله
بالالطاف ــ ــ ـت عيبا فسد الخللا جل من لا عيب فيه وعلا
وصلى الـ ــ ــ سيدنا محمد النبي الامي
وعلى ــ ــ ـحبه وسلم تسليما كثيرا
ـد الى يوم الدين
الحمد لله رب
العالمين

ـ صورة آخر الجزء الرابع من نسخة (ج)